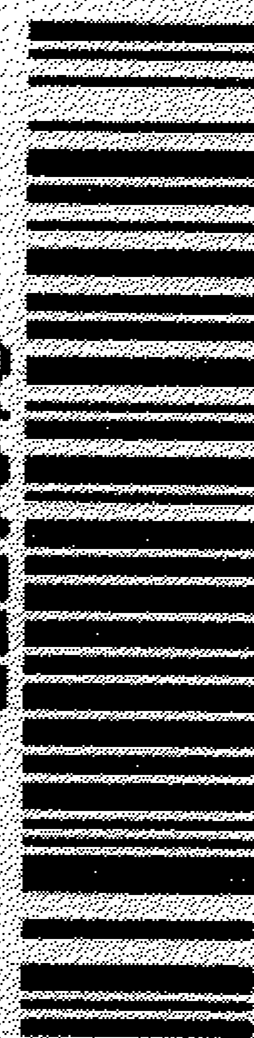
معركة المنصورة

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش

معارك حربية فاصلة

عربية وإسلامية

معركة المنصورة

٦٤٧ - ٦٤٨هـ / ١٢٤٩ - ١٢٥٠م

محمد الانطاكي

دار الشرق العربي

بيروت - شارع سورية - بناية درويش

سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجيدة
من تاريخنا الحافل بالبطولات، من القرن الهجري
الرابع الى العصر الحديث.

١ - معركة الحدث الحمراء ٢ - معركة الزلاقة
٣ - معركة حطين ٤ - معركة الارك
٥ - معركة المنصورة ٦ - معركة عين جالوت
٧ - معركة فتح القسطنطينية ٨ - معركة وادي المخازن
٩ - معركة ميسلون ١٠ - معركة الجبل الأخضر

شارك في تحرير هذه السلسلة

الدكتور صالح الأشتر
والدكتور عمر الدقاق
والأستاذ محمد الانطاكي

وأشرف على إصدارها

الدكتور صالح الأشتر

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه إلا القادرون على
الموت في سبيله

الحروب الصليبية

تُعَدُّ معركةُ المنصورةِ معَ معركةِ حِطِّينَ التي سبقتْها أعظمَ ما خاضَهُ المسلمونَ من معاركَ في سلسلةِ الحروبِ الصليبيَّةِ التي شَنَّتْها أوروبَّةُ النَّصْرانيةُ على الشرقِ الإسلاميِّ بينَ ١٠٩٦ و ١٢٥٠ للميلادِ. وإذا كانتْ معركةُ حِطِّينَ تمثِّلُ نقطةَ التَّحوِّلِ في الموقفِ الإسلاميِّ من موقفِ دفاعٍ إلى موقفِ هجومٍ، فإنَّ معركةَ المنصورةِ كانتِ الضربةَ القاضِيَةَ التي أَجْهَزَتْ على كلِّ مَطْمعٍ للأوروبيِّينَ في السَّيطرةِ على الشرقِ لِنَهْبِ ثَرَوَاتِهِ واستعبادِ شعوبِهِ.

لقد بلغَ منْ عُنْفِ هذه المعركةِ وجسامةِ نتائِجِها أنَّها أَورثَتِ الأوروبيينَ اليأسَ المُطْبِقَ من تحقيقِ أيِّ نجاحٍ لهم في الشرقِ، ممّا حَمَلَهم على تحويلِ هجومِهِم المُتَعَصِّبِ الحاقدِ نحو مُسْلِمي الأَنْدَلُسِ،

وجَعْلِهم يَقْبَعُوْنَ في قارَّتِهم مُدَّةَ ستةِ قرونٍ قبلَ أن يُعاوِدوا الكَرَّةَ في حَمَلاتٍ صليبيةٍ جديدةٍ دُعِيَتْ للتمويهِ بأسماءٍ مُختلفةٍ كالاستعمارِ، والحِمايةِ، والوِصايةِ، والإِنْتِدابِ.

ومعركةُ المنصورةِ لا تستمدُ أَهَمِّيَّتَها من كونِها إحدى أضخمِ هزيمتَينِ حَلَّتا بالصليبيينَ فَحَسْبُ، بل إنَّها تُعَدُّ من الوِجهةِ العسكريةِ نَموذَجاً رائعاً للخُطَّةِ الدفاعيةِ الذكيةِ التي تنتهي بالقضاءِ المُبْرَمِ على الجانبِ المُهاجِمِ، ممّا سنتناوَلُهُ بالدراسةِ المُفصلةِ في الفصلِ الأَخيرِ من هذا الكتابِ.

لهذا وذاكَ كانتْ معركةُ المنصورةِ جديرةً بعددٍ من هذه السلسلةِ نَعرضُ فيه لأَسبابِها ونتائِجِها ومُلابساتِها ووقائعِها، ونُحاولُ في ختامِهِ أَنْ نتناولَها بالدراسةِ التحليليةِ لاستخلاصِ المَواعظِ والعِبَرِ، ولمّا كان هذا لا يَتَهيَّأُ لنا إلاّ بِوَضْعِها في إطارِها التاريخيِّ الواسعِ فإنّا رأيْنا أَنْ نبدأَ الحديثَ بالكلامِ المُوجزِ على الحروبِ الصليبيّةِ التي كانتْ معركتُنا هذهِ الحَلْقَةَ الأخيرةَ في سلسلتِها الطويلةِ.

شَنَّتْ أوروبةُ على الشرقِ الإسلاميِّ، وعلى مدى قرنٍ ونصفٍ من الزمنِ (١٠٩٦-١٢٥٠ للميلاد) حروباً متعاقبةً هُوْجاً أشعلَ نارَهَا ذلك الصراعُ الدِّينيُّ العنيفُ إبّانَ القرونِ الوُسطى بينَ النَّصرانيةِ والإسلامِ. وكانَ الهدفُ المُعْلَنُ لهذه الحروبِ التي بَلَغَتْ سبعاً أو ثمانياً هو تَخليصَ «قَبْرِ» السيِّدِ المسيحِ من أيدي «المسلمينَ الكَفَرَةِ». وإذا كان هذا هو الغرضَ الحقيقيَّ لبعضِ الحَملاتِ، فمِن المُؤكَّدِ أنَّه لم يكنْ كذلكَ بالنسبةِ للحَملاتِ الأخرى. بل إنّ ما حدثَ في الواقعِ يَدُلُّ بوضوحٍ على أن أغراضاً دُنْيَوِيَّةً كثيرةً قد التبسَتْ بالغرضِ الدِّينيِّ منذُ الحَمْلَةِ الأولى.

الحَمْلةُ الصليبيّةُ الأولى (١٠٩٧-١٠٩٩م)

كانَ العالَمُ الاسلاميُّ في بِدايةِ القرنِ السادسِ

الهِجريّ (٥٠٣هـ) ونهايةِ القرنِ الحاديْ عَشَرَ الميلاديّ (١٠٩٦م) ــ كان هذا العالمُ يشكو حالةً حادةً من الضَّعفِ والإِنْقسامِ. فالخلافةُ العباسيَّةُ في بغدادَ كانتْ قد وصلَتْ إلى الدَّرَكِ الأسفلِ من الإنْحطاطِ والهُزالِ، إذْ لم يبقَ للخليفةِ سوى سُلْطةٍ دينيةٍ رمزيةٍ تتمثلُ في الدعاءِ لهُ على المنابرِ في خطبةِ الجُمُعةِ. أما سائرُ السلطاتِ فقد كانتْ في أَيدي الأمراءِ من الأَتْراكِ السلاجِقَةِ الذين اقتَسَموا فيما بينهم االشامَ والعِراقَ وجُزءاً من الأناضولِ فيما يُشبهُ الحكمَ الإقطاعيّ في أوربّةَ.

نعم. كان يحدثُ أحياناً أنَّ أَحدَ هؤلاءِ الأمراء يقومُ بتوسيعِ إمارتِهِ على حسابِ الإماراتِ المجاورةِ، ويُؤلِّفُ دولةً قويةً واسعةَ الأرجاءِ، ولكنْ ما يكاد

هذا الأميرُ يموتُ حتى يُسرِعَ أولادُهُ إلى اقْتسام ِمُلْكِهِ الواسعِ فيما بينهم. وهكذا تعودُ المِنْطقةُ إلى حالةِ التَّشَرْذُم ِ والتَجْزِئَةِ مَرَّةً أخْرى.

ولم تكُنِ الخلافةُ الفاطميةُ في القاهرةِ بأحسنَ حالاً من أختِها العباسيةِ في بغدادَ، فقد تسَّربَ إليها الهُزالُ والضُّمورُ حتى لم يبقَ لها مِن مُلكِها الواسعِ سوى القُطْرِ المِصريِّ وحدَهُ. وزادَ من ضعفِها أنَّ الوزراءَ استبدُّوا بالحُكْمِ دونَ الخلفاءِ، ثم راحوا يَنحدرونَ بالدولةِ إلى قرارةِ الاضْمحلالِ بسببِ تَنافُسِهِم ومُنازَعاتِهِم.

في هذا الوقتِ، والشرقُ الاسلاميُّ على ما وصفْنا مِن الحالةِ السياسيةِ الكئيبةِ، تَحَرَّكَتِ الحَملةُ الصليبيةُ الأولى مِن أوروبَّةَ في اتجاهِ الأراضي المُقَدَّسَةِ.

كانَ زُعماءُ هذه الحملةِ من الأَشْرافِ والأمَراءِ. وأهمُهم «غُوْدُفرِي البُرْغَنْدِيُّ» دوقُ اللورِينِ السُّفلى، و«رِيمونْدُ» دوقُ طولوزَ في جُنوبِ فرنسة، و«بُوهِمُنْدُ» ابنُ «رُوبِرْتَ» النُورمَنْديُّ ملكُ جُنوبِ إيطاليةَ.

واتَّفقُوا على أَنْ يَتَّخِذَ كلٌّ منهم طريقَهُ الخاصَّ على أَنْ يكونَ اللِّقاءُ في القُسطَنْطِينيَّةِ. وفي عامِ ١٠٩٧م اجتمعَ شَمْلُهم في العاصمةِ البِيزَنْطِيَّةِ، فبلغوا مِائةَ ألفِ فارسٍ، وسِتَّمِائةِ أَلفٍ مِن المشاةِ، وغيرَ ذلك من النساءِ والأَطفالِ.

وفي الصَّيفِ مِن العامِ نفسِهِ عَبَرُوا مَضيقَ البُوسفورِ، وتقدَّموا في آسيةَ الصُّغرى، فحاصَروا مدينةَ «نِيقِيَةَ» التي لم يَستطعِ الأميرُ «قَلْج

أرسلانُ» السُّلجوقيُّ الدفاعَ عنها، فانسحبَ إلى عاصمةِ مُلْكِهِ «قُونِيَةَ» متحاشياً الإِصْطدامَ بهم بعدَ الذي رآه مِن تفوُّقِهِمْ الساحقِ في العَتادِ والرِّجالِ.

ونجحَ الصَّليبيّونَ في الاسْتيلاءِ على «أَسْكي شَهْرَ» بعدَ «نِيقِيَةَ»، ومن هناكَ انْطلقوا إلى الرُّها بينَ دِجْلَةَ والفُراتِ، فَافْتتحوها وأقامُوا فيها أَوّلَ إمارةٍ لاتِينيَّةٍ لهم.

واتَّجهتْ بعضُ جُموعِ الصليبيّنَ إلى أَنْطاكِيَّةَ، وأَفلحوا في الإِسْتيلاءِ عَليها بعدَ مُقاومةٍ عنيفةٍ، وجَعلوها إمارةً ثانيةً أَقاموا عليها بُوهِيمندَ النُّورمَنْدِيَّ.

وبعدَ فترةٍ مِن الرّاحةِ ساروا نحوَ بيتِ المَقْدِسِ فاستَوْلَوْا عليهِ عام ١٠٩٩م. واسَّسُوا هناكَ مَمْلكةً رفعُوا على عَرشِها غُودُفري البُرْغَنْدِيَّ. ثم فتحوا عكّا

وطَرَابلسَ وصُورَ. وأسَّسوا إمارةَ طرابلسَ، واختاروا رِيمونْدَ دوقَ طولوزَ أميراً عليها.

وكان من أهمِّ نتائجِ هذه الحملةِ أنْ تكَوَّنَتْ للاّتينِ مَمْلكةٌ في بيتِ المَقْدِسِ، وثلاثُ إماراتٍ في طرابلسَ وأَنطاكيَّةَ والرُّها. وانحصر نفوذُ الصليبيّينَ في الساحلِ، أما المُدُنُ الداخليةُ كَدِمَشْقَ وحَلَبَ وحِمْصَ وحَماةَ فقد ظلَّتْ في أَيدي المسلمينَ.

وبدأَتْ الجُمهورياتُ التِّجاريَّةُ الإيطاليَّةُ: جِنوَةُ، والبُنْدُقِيَّةُ، وبِيزَةُ ـ وهي الجُمهورياتُ التي ساعَدَتْ بأساطِيلِها البَحريَّةِ على إمدادِ الحَمْلةِ بما كانت تحتاجُ إليه من المُؤَنِ ـ بدأت هذه الجُمهورياتُ تُؤَسِّسُ علاقاتِها التجاريَّةَ مع الشرقِ بفَضلِ مُساعدةِ الصَّليبيينَ ثمناً لمساعدتِها السَّابقةِ لهم، وتنفيذاً لِلاتِّفاقاتِ التي كانت بينَها وبينَهم.

الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ــ١١٤٩م)

كانَ انْقسامُ دولةِ السَّلاجقةِ، وحرمانُ المسلمينَ من زعيمٍ يُوحِّدُ كلمَتهُم، ويَجمعُ قُوّاتِهم تحت رايتِهِ، ويقودُها ضدَّ الصليبيينَ، من أهمِّ العواملِ التي أَمكنتْ هؤلاءِ من الانْتصارِ في الحملةِ الأولى.

ولكنْ ظهرَ في عامِ ١١٢٧م عمادُ الدِّينِ زَنْكِي، كبيرُ الأمراءِ السَّلاجِقةِ، وأتابِكُ (القائدُ العامّ) الموصلِ والعِراقِ، وعَمِلَ على توحيدِ كلمةِ المسلمينَ، والسَّعي لِقتالِ الصليبيينَ وطردِهِم من ديارِ الإسلامِ. وقد سنحتْ له الفرصةُ حينَ اسْتنجدَ به بعضُ مُدُنِ الشَّامِ، أَمثال حلبَ وحماةَ ودمشقَ، ودعتْه إلى إِنْقاذِها مِن الصليبيينَ، فسارَ إلى الشام واحتلَّ المدنَ المذكورةَ فحماها من غائلةِ المُتَرَبِّصِينَ بِها.

وفي عام ١١٤٤ نجحَ في استعادةِ مدينةِ الرُّها مِن الصليبيينَ. ولكنَّه لم يُعَمِّرْ طويلاً بعدَ ذلك، فقدْ قُتِلَ واقْتَسمَ وَلَداهُ من بَعدِهِ دولتَهُ الواسعةَ، فخلفَهُ ابنُهُ سيفُ الدِّينِ في حُكْمِ المَوْصِلِ، وابنُهُ نورُ الدينِ محمدٌ في حُكْمِ الشّامِ. واتَّخذَ الأخيرُ مدينةَ حَلَبَ مقرّاً له، وسار على نَهْجِ أبيهِ في جهادِ الصَّليبيين.

وقامَ الأَرْمنُ سنةَ ١١٤٧ بِفِتْنَةٍ في مدينةِ الرُّها فدمَّرَها نورُ الدينِ. فأثارت هذه الحادثةُ الشعورَ الدِّينيَّ في أوربّةَ مرَّةً أخْرى، وكانتْ سبباً لِقيامِ الحَرْبِ الصليبيةِ الثانيةِ.

وكانَ زَعيمُ هذهِ الحَمْلةِ الثانيةِ الراهبَ الفِرَنْسِيَّ «سان بِرْنار» الذي استطاعَ أن يَضُمَّ إلى صُفوفِ المحاربينَ عدداً من المُلوكِ والأمراءِ أمثال لويسَ السابعِ مَلِكِ فِرَنْسة، وكونراد الثالثِ امبراطورِ

ألمانيةَ. وفقدَ الصليبيون الجُدُدُ ثلاثةَ أرباعِ قُوّاتِهم الأَصْليةِ قبلَ أن يَصِلُوا إلى بلادِ الشامِ. ولما أَخفَقُوا في الوصولِ إلى دمشقَ التي كانتْ هدفَهُم عادَ المَلِكانِ الصليبيّانِ إلى مَمْلكتَيْهِما، وحَبِطَتِ الحَمْلةُ الثانيةُ.

الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٧ــ١١٩٣م)

كانتِ الخلافةُ الفاطميَّةُ في وادي النيلِ تَسيرُ بخُطاً واسعةٍ نحو الضَّعفِ والإِنْحِلالِ واستبدَّ الوزراءُ بالسُّلطانِ. فطَمِعَ كلٌّ مِن نورِ الدينِ والصليبيينَ في الإِسْتيلاءِ على مصرَ.

وحدثَ في عام ١١٦٧م أن تنازعَ الوزيران «شاوَرُ» و«ضِرْغامٌ» حكمَ البلادِ. فاستنجدَ شاورُ بنورِ الدينِ، واستنجدَ ضِرغامٌ بالصليبيينَ، ولكنَّ أسدَ الدينِ شِيرْكُوهُ قائد قواتِ نورِ الدين استطاعَ أَنْ يقتُلُ

ضِرغاماً و يَهْزِمَ حلفاءهُ الصليبيينَ، وأَنْ يجعلَ شاورَ يَتَفَرَّدُ بالوزارةِ. ولكنَّ الوزيرَ المُنتصِرَ لم يَفِ لنورِ الدينِ بالعهودِ التي كانَ قد قطعهَا على نفسِهِ. وزادَ على ذلك أَنَّهُ عقدَ اتفاقاً سِرِّيّاً معَ الصليبيينَ، فلم يَجِدْ نورُ الدينِ بُدّاً مِن غزوِ مِصْرَ. و بعدَ ثلاثِ حَمَلاتٍ عسكريةٍ تمكَّنتْ جيوشُهُ بقيادةِ قائدِهِ المشهورِ صلاحِ الدينِ ابن أخِي أسدِ الدينِ مِنَ الاسْتيلاء على مِصرَ عامَ ١١٦٩م وأصبحَ القائدُ المنتصرُ وزيراً للعاضِدِ آخرِ الخُلَفاء الفاطميّينَ.

ولم يَلْبَثِ الخليفةُ أنْ ماتَ، فأعلنَ صلاحُ الدينِ انتهاءَ الخلافةِ الفاطميةِ، وأَلْحَقَ مِصرَ بالخلافةِ العباسيَّةِ تنفيذاً للأوامرِ التي جاءتْهُ مِن أميرِهِ نورِ الدينِ زَنْكِي.

بعدَ ذلك بوقتٍ قصيرٍ ماتَ نورُ الدينِ فاقتسمَ أولادُهُ

مُلْكَهُ وراحوا يتنازعونَ فيما بينَهم، فسارَ صلاحُ الدينِ إليهم من مِصْرَ، وقَضى عليهم جميعاً، وأعادَ تَوحيدَ الشّام ِ ومصرَ، ثم ضمَّ إليها الحجازَ واليَمَنَ، فَغَدَتْ دولتُهُ أكبرَ دولةٍ في الشرقِ الأوسطِ لذلك العَصْرِ، وعندئذٍ رأى أنَّ الوقتَ قد حانَ لطردِ الصليبيينَ منَ المِنطقةِ، فسار إليهم والتقى بجيوشِهم في حِطّينَ حيثُ هزمَهُم هزيمةً مُنْكَرَةً عامَ ١١٨٧م. ثم فتحَ بيتَ المَقْدِسِ وراحَ يُطاردُ فُلولَ الصليبيينَ في كلِّ مكان ٍ حتى حرَّرَ البلادَ مِنهم، ولم يبقَ في حَوزَتِهم عامَ ١١٨٩ سوى مدينةِ صُورَ.

وجاءتِ الحملةُ الصليبيةُ الثالثةُ مِنْ أوروبّة إلى فلسطينَ عام ١١٩٢ لاسْتِرجاعِ بَيْتِ المَقْدِسِ. ولكنّها أخفقتْ في الوصولِ إلى هَدَفِها كما أخفقَتْ سابقتُها، واضْطرَّ ريشاردُ الأوَّلُ مَلِكُ انكلترا وأحدُ

كِبارِ المشتركين فيها إلى عَقْدِ الصلحِ مع صَلاحِ الدينِ والعودةِ إلى بلادِهِ.

الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠١ - ١٢٠٢م)

أما الحملة الصليبية الرابعة التي قامت عام ١٢٠١ فقد أضـرَمَ نارَها البابا «إنُّوسَنْتُ الثالثُ»، فَأمدَّها بما تحتاجُ إليهِ مِن مُعَدّاتِ القِتالِ ومِن حَرارةِ الايمانِ، ووجَّهَها نحو مصرَ لا نحوَ فِلِسْطِينَ. ولسنا ندري السببَ الذي حَمَلَ البابا على ذلك، فكلُ الظروفِ كانت تُظهرُ بوضوحٍ عدمَ جَدْوى احتلالِ مصرَ إذا كانَ الهدفُ الاستراتيجيُّ النهائيُّ هو استردادَ بيتِ المقدسِ في فِلِسطينَ. ذلك أن مصر كانت تُمَثِّلُ، كما هي اليومَ، أكبرَ قُطْرٍ إسلاميٍّ من حيث الكثافةُ السكانيَّةُ، وهذا يجعل أي جيشٍ يفكر

باحتلالِها عاجزاً تماماً عن القِيامِ بأيٍّ نشاطٍ في منطقةٍ أخرى، هذا إلى بُعْدِ الشُّقَّةِ بينها و بينَ بيتِ المقدسِ إذا ما قورنتْ بالمسافةِ بين هذه المدينةِ ومدينةِ صورٍ التي كانتْ لا تزالُ في حَوْزَةِ الصَّليبيينَ.

ومهما يَكُنِ الأمرُ فإنَّ الحملةَ لم تتَّجِهْ إلى فِلِسطينَ مباشرةً، ولا إلى مصرَ كما كانَ مرسوماً لَها، بلِ اتَّجَهَتْ نحو القُسطنطينيَّةِ، فأغارتْ عليها، ونهبَتْها عن آخِرِها، ثم اشعلتْ فيها النارَ التي الْتَهَمَتْ أكثرَ معالِمِها: ثم ارتدَّتْ إلى قواعِدِها في أوروبّة دونَ أن تفكِّرَ بشيء اسمُهُ «تَخْليصُ قَبْرِ المسيحِ» من أيدي «المُسْلمين الكَفَرَةِ»!

الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨ــ١٢٢١م).

وفي عام ١٢١٨ أغارَ على مصرَ مِائتَا ألفِ رجلٍ

من الفِرَنْجَةِ بقيادةِ «جان دي برين» ملكِ بيتِ المقدسِ، وألقَوْا مراسِيَهُم بالقُربِ من دِمْياطَ على المَصَبِّ الشرقيِّ لنهرِ النِّيلِ، ثم ضربُوا حولَ المدينةِ حصاراً دامَ سِتَّةَ عَشَرَ شهراً دونَ أن يتمكَّنوا من فَتْحِها. فأخذَ البابا «أنوريوسُ الثالثُ» يَستحِثُّ ملوكَ أوروبّةَ على نَجدةِ الصليبيينَ، فاجتمعَ لِكَلِمَتِهِ جيوشٌ من النَّمْسا، وبِيزَةَ، وجِنوَةَ، والبُنْدُقِيَّةِ، وانكِلْتِرَةَ، وفَرِنْسَةَ. ولَحِقَ الجميعُ بإخوانِهِم في دِمْياطَ بقيادةِ الكاردينالِ «بيلاجيوسَ» بِصفتِهِ نائباً بابا وِيّاً، وحَمَّلَهُ البابا مالاً وَفيراً جمعَهُ باسمِ «حَرْبِ الصليبِ المقدسِ»، فسارَ هذا بجنودِهِ حتى وصلَ إلى معسكرِ الصليبيينَ حولَ دِمْياطَ.

وبوصولِ هذهِ النَجَداتِ زادَ الصليبيونَ قوةً على قوتِهِم، فاشتدوا في حصارِ المدينةِ حتى سقطَتْ في

أيديهِم يومَ الثّلاثاءِ ٢٥ شعبان ٦١٦هـ (تشرين أول ١٢١٩م).

وفي أثناءِ ذلكَ كانَ على حُكْمِ مِصْرَ الملكُ الكاملُ ابنُ الملكِ العادلِ شقيقِ صلاحِ الدينِ الأَيُّوبيِّ، فعرضَ هذا الملكُ على الغُزاةِ أن يُعيدَ إليهِم مَمْلَكَةَ بيتِ المقدسِ التي كانتْ في أيديهِم قبلَ سنة ١١٨٧ لقاءَ إخلاءِ دِمْياطَ ومُغادرةِ القُطرِ المِصْرِيِّ. ولكنَّ الصليبيينَ رفضوا هذا العَرْضَ مُؤثِرينَ ثَرَواتِ مِصْرَ على قَبْرِ السيِّدِ المسيحِ. وعندئذٍ لم يَجِدِ المَلِكُ الأيوبيُّ بُدّاً من مُجاهدَتِهِم، فانسحبَ بجيشِهِ إلى أَحْصَنِ مَوْقِعٍ على الطريقِ بينَ دِمياطَ والقاهرةِ، وبنى فيه مدينةً سَمّاها المَنْصورةَ تفاؤُلاً بانتصارِهِ على الصليبيينَ، وجعلَها مقرّاً له ولجنودِهِ، وراحَ ينتظرُ فيها مجيءَ الصليبيينَ إليه. ولما وصلَ هؤلاءِ

بجيوشِهِم كانتْ بينَ الفريقَينِ معاركُ طاحِنَةٌ في البَرِّ والماءِ خَسِرَ فيها الفِرَنْجُ ثمانِيَ سفنٍ حربيةٍ ضخمةٍ وآلافاً كثيرةً مِن القَتْلى، كما أسِرَ منهم الفانِ ومِائتا رجلٍ.

إزاءَ هذهِ الخسائرِ الجسيمةِ التي حَلَّتْ بالفِرَنْجِ طلبَ هؤلاءِ الصُّلْحَ، وعَرَضوا أن يُخْلُوا مدينةَ دِمياطَ و يرتدّوا عن مِصْرَ لقاءَ أن يستعيدوا مِن المسلمينَ بيتَ المقدسِ وعَسْقَلانَ وطَبَريَّةَ وجَبْلَةَ واللاّذِقيَّةَ وما فَتَحَهُ السُّلطانُ صلاحُ الدينِ من بلاد الساحلِ، فوافقَ الأمراءُ المسلمونَ على التنازلِ عن ذلكَ كلِّهِ ما عدا الكَرَكَ والشَّوْبَكَ، فأبى الفِرَنْجُ قائلينَ: «لا نُسَلِّمُ دُمياطَ حتى تُسَلِّموا ذلك كلَّهُ، ولا بدَّ أن تُعطونا خمسَمِائةِ ألفِ دينارٍ لِنُعَمِّرَ بها ما خرَّبْتُموه من أسوارِ القدسِ».

ورفضَ المَلِكُ مَطالبَهم، واستُؤنفَ القِتالُ. وعندئذٍ عَبَرَتْ جماعاتٌ مِن المسلمينَ إلى خَلْفِ خطوطِ الأَعداءِ، وبَثَقَتْ ثَغراتٍ كبيرةً في شاطىءِ النيلِ الذي كانَ في أَوْجِ فَيَضانِهِ، فأَحاطتِ المياهُ الصليبِّيينَ من كلِّ جانبٍ، وهاجَمُهُم الجنودُ المسلمونَ من أمامِهِم فكادُوا يقضونَ عليهم القضاءَ المُبْرَمَ.

ولما عَلِمَ الصليبيونَ أنَّهم هالكونَ لا محالةَ أرسلُوا في طَلَبِ الصُّلْحِ على أن يُخلُوا مدينةَ دِمياطَ لقاءَ لا شيءَ إلا سلامةَ أنفسِهِم. وأَجابَهم المسلمونَ إلى طَلَبِهِم. وهكذا حَبِطَتِ الحملةُ الصليبيةُ الخامسةُ كما حَبِطَتْ أَخواتُها السابقاتُ مِن قبلُ. وعادَ الصليبيّونَ من حيثُ أَتَوْا يجرِّرونَ أَذْيالَ الخِزْيِ والعارِ.

تلكَ كانتْ باختصارٍ الحَملاتُ الصليبيةُ

الخمسُ التي سبقَتْ حملةَ لويسَ التاسِعِ ملكِ فرنسةَ، والتي ستكونَ موضوعَ كِتابِنا في الصفحاتِ المُقْبِلَةِ عَرْضاً وتَحليلاً.

جيش الغزو يبحر من فرنسة

مُنذُ أكثرَ مِن سَبْعِمِائَةِ عامٍ، وعلى وَجْهِ التَّحديدِ: في الخامسِ والعِشرينِ من آبِ سنةِ ١٢٤٨ ميلاديةَ، جُمادى الأولى سنةَ ٦٤٦ هجرية، أبحرَ مَلِكٌ مِن أَشهرِ مُلوكِ أوروبَّةَ في ذلك الحِينِ، وهو لويسُ التاسعُ ملكُ فرنسَةَ، على رأسِ جيشٍ ضخمٍ من الفرسانِ والمشاةِ مُتَّجهاً شَطْرَ مصرَ بِنيةِ الاسْتيلاءِ عليها تنفيذاً لمُقَرَّراتِ مُؤْتَمرِ «لِيونَ» الذي اجتمعَ فيه زعماء النَّصرانيَّةِ، وأعلَنُوا الحربَ الصليبيةَ السادسةَ ضدَّ الشرق الاسلاميِّ.

وكانَ الجيشُ الفرنسي يُضمُّ عَدَداً من الفِرقِ غيرِ الفِرَنْسيَّةِ التي تطوَّعتْ لِلاِشْتراكِ في هذِهِ الحملةِ. وأهمُّ هذِهِ الفرقِ الفِرْقَةُ الإنكليزيَّةُ بقيادةِ «وِلْيَمَ طويلِ السيفِ» حاكمِ مُقاطعةِ «سالِسْبُوري»، وفرقةُ الفرسانِ الداويَّةِ بقيادةِ رئيسِهِم «وِلْيَمَ دي سِناكَ» وهي فرقةٌ مؤلفةٌ من الرُّهْبانِ الذين وَقَفُوا أنفسَهُم لِلقتالِ ضدَّ الإسْلامِ.

وقدِ اصْطَحَبَ لِويْسُ معَهُ في رحلتِهِ عَدَداً لا بأسَ بِهِ من أَفرادِ أسرتِهِ، منهم أخوه «شارِلُ كونتُ دَانْجو»، وأخوه الثاني «رُوبرْتُ كونتُ دارتْوَا»، وزوجتُهُ «مارْغَريتُ دي بُرفانسَ»، أما أخوه الثالث المدعوُّ «أَلْفونسَ كونت دي بواتييه» فقد بَقِيَ في فرنسةَ بعضَ الوقتِ لجمعِ نَجَداتٍ وإمداداتٍ أخرى على أنْ يلحقَ بالجيشِ الفِرَنسيِّ فيما بَعْدُ.

ولم ينسَ الملكُ الصليبيُّ قبلَ إبْحارِهِ أن يزورَ البابا لِلاِعترافِ له بخطاياهُ، وتَلَقِّي بركاتِهِ الضروريَّةِ قبلَ المُضِيِّ في هذه الرحلةِ المَصِيريَّةِ.

كانَ الأسطولُ الذي أقلَّ هذهِ الحَمْلَةَ يتألَّفُ من ١٨٠٠ سفينةٍ تحملُ ثمانينَ ألفَ مُقاتلٍ بمؤُونَتِهِم وعَتَادِهِم وخَيْلِهِم، كما كانتْ هناكَ قُوَّةٌ عظيمةٌ من سفنِ القِتالِ تُواكبُ هذا الأسطولَ الهائلَ لحمايتِهِ وحراستِهِ.

ولم يَذْكُرِ المؤرخونَ الصَّليبيونَ من أينَ أَتى لويسُ بكلِّ هذه السُفُنِ؟ فهل بناها في فرنسةَ لحملتِهِ هذه؟ أم هَلِ استأْجَرَها منَ الجُمهوريات الإيطاليةِ التجاريةِ جِنوةَ والبندقيَّةِ وبِيزةَ التي كانت تملكُ في ذلكَ العَصْرِ أضخمَ الأساطيلِ التجارية في العالمِ؟

أغلبُ الظنِّ أنه كان لهذه الجمهورياتِ نوعٌ ما

مِن الإِسهام ِفي هذا الأسطولِ الضخمِ، فقد دَأَبَتْ مُنذُ الحملةِ الأولى على تقديمِ كلِّ مساعدة ٍبحريةٍ للجيوشِ الصليبيةِ لقاءَ ما كان يَعِدُها به قادةُ هذهِ الجيوشِ من امتيازات ٍتجاريةٍ خاصةٍ. بل لقد أَمَّلَتْ في الحَملةِ الأولى أن يُسَيْطِرَ الصليبيونَ على مِنطقةِ الشرقِ الأوسطِ كلِّه حتى سواحلِ الخليجِ العربيِّ، وأَنْ يَتَّصِلَ تُجّارُها نتيجةً لذلك بالهِنْدِ مُباشَرَةً، فيأْتُوا منها بالتَّوابلِ دونَ دَفْعِ المُكُوسِ الباهظةِ التي كانوا يدفعونَها لِلْعربِ مُضْطَرِّينَ.

ومهما يَكُنِ الأمرُ فقد أَبحرَ أسطولُ الحملةِ من مَرْسِيلِيَة على دَفَعات ٍ، لأنَّ عددَ قِطَعِهِ الكبيرَ لم يَكُنْ يسْمحُ له بالإِبحارِ دفعةً واحدةً. وقد أَسْندتْ قِيادتَهُ في البحرِ إلى قَباطِنَةٍ جنويِّينَ لِعَدَمِ خِبْرةِ الفرنسيينَ بشُؤون المِلاحةِ.

في قبرص

في السابعَ عَشَرَ من أَيْلولَ سنة ١٢٤٨ وصلَتْ طَلائعُ الأسطولِ الفِرَنْسيّ إلى جزيرةِ قُبْرُصَ، فألقَتْ مَراسِيَها، وأفرغتْ حُمولتَها من الرجالِ والعَتادِ، ثم راحتْ بقيَّةُ القِطَعِ تتوافَدُ على سواحِلِ الجزيرةِ يوماً بعدَ يومٍ.

ولسنا نعلمُ السَّببَ الذي حملَ لويسَ على أنْ يَتَّجِهَ بجيشِهِ نحوَ قُبْرَصَ لا نحوَ مِصْرَ مُباشرةً. ربما لكي يتزوَّدَ بالمُؤَنِ الضخمةِ مِن الحُبوبِ والنبِّيذِ التي سبقَتْهُ إلى الجزيرةِ قبل إبحارِهِ من فِرَنْسَة، إذ كانتْ بسببِ ضخامَتِها عِبْءاً ثقيلاً على أسطولِهِ على الرُّغْمِ من وَفْرَةِ قِطَعاتِهِ، وربّما لأنَّه أرادَ أن يَتّخِذَ من الجزيرةِ مَرْكَزاً لتحشُّداتِ قواتِهِ التي لم تَستطِعِ الإبحارَ دفعةً واحدةً بسببِ كَثْرَتِها، وربّما أرادَ أن يَنْتَظِرَ في

الجزيرةِ لحاق أخيهِ أَلفونس كونت دي بواتييه به على رأسِ الإمداداتِ التي بَقِيَ في فرنسة لجمعِهَا، أو أرادَ أن ينتظرَ الامداداتِ التي يُمكنُ أن يقدِّمَها له الصليبيونَ الذينَ كانوا لا يزالونَ مُسيطِرينَ على أجزاءٍ مِن الساحلِ الشاميِّ، وربّما لأنَّه لم يكنْ قدِ اسْتقرَّ رأيُهُ على الجِهَةِ التي سيُهاجِمُها مِن السواحلِ الإسلاميةِ، فأرادَ البقاء في الجزيرةِ مدَّةً يُقَلِّبُ فيها الرَّأْيَ و يدرسُ الأَحوالَ.

وعلى كلِّ حالٍ، فإنَّ نزولَ لويسَ في قبرصَ لم تعترِضْهُ عقباتٌ أو إشكالاتٌ سياسيةٌ أو عَسْكَرِيَّةٌ، لأنَ الجزيرةَ كانت تحتَ حُكْمِ جماعةٍ من الصليبيّنَ الذينَ ينتمونَ عِرْقِيّاً ولُغويّاً إلى فرنسة، وهكذا كانَ لويسُ في نزولِهِ جزيرةَ قبرصَ كَمَنْ ينزِلُ بيتَهُ ويحلُّ على أهلِهِ.

ولكنَّ إقامةَ لويسَ في قبرصَ طالت أكثرَ مما يَنبغِي، فقدِ امْتَدَّتْ ثمانيةَ أَشهرٍ كاملَةً، وهذه مُدَّةٌ طويلةٌ يُخشى فيها على الجيشِ من أنْ يَتَسرَّبَ إليه المَلَلُ والسَّأَمُ، وأنْ تَفْتُرَ عزيمتُهُ على القتالِ، وأن يفقِدَ الحَماسةَ التي شُحِنَ بها عندَ أَوَّلِ مَسيرِهِ. وهذا ما حدثَ بالفعلِ، إذِ انغمسَ الجُنودُ، وقد شعرُوا بالفَراغِ، في اللَّهوِ والفِسْقِ ومُعاقَرَةِ الخَمْرِ ومُعاشَرَةِ النساءِ، حتى نَفِدَتِ الأَقْواتُ، واسْتُهلِكَتِ المُؤنُ، ممّا أجبرَ لويسَ على البقاءِ مُدةً أخرى ليُعِيدَ تموينَ جيشِهِ قبلَ التَّوَجُّهِ إلى هدفِهِ الاستراتيجيِّ وهو احتلالُ القطرِ المِصْريِّ.

ماذا في الجانب الإسلامي

كانَ على عرشِ مصرَ في ذلكَ الوقتِ واحدٌ من

أعظمِ خُلفاءِ صلاحِ الدينِ الأيوبيِّ هو الصالحُ نجمُ الدينِ أيُّوبُ بنُ الكاملِ الذي سَحَقَ الصليبيينَ في حملتِهِم الخامسةِ على دِمْياطَ قبلَ أقَلَّ من ثلاثينَ سنَةً.

كان الصالحُ عندما تواردَتْ إليهِ أنباءُ حملةِ لويسَ مقيماً في دِمَشْقَ لِتهدِئةِ بعضِ الثَّوْراتِ التي اشتعلتْ هناكَ، ولإعادةِ تنظيمِ مَمْلكتِهِ الواسعةِ التي كانت تضمُّ كُلاًّ من مِصْرَ والشام والمَوْصِلِ.

وعلى الرُّغمِ من أنَّ إقامةَ لويسَ الطويلةَ في قُبْرصَ قد هَيَّأتْ لِلصالح الفُرصةَ الكافيةَ للتأهُّبِ والإسْتعدادِ، فإننا نَرى والدهشةُ تتملَّكنا أنَّ هذا القائدَ المُحَنَّكَ ظلَّ في دمشقَ لا يُحرِّكُ ساكِناً، ولا يقومُ بأي عملٍ إلى ما قبلَ تحرُّكِ لويسَ مِن الجَزيرةِ ببِضعةِ أسابيعَ قليلةٍ فَقَطْ.

ما سرُّ هذا التباطُوءِ المُزْعِجِ الذي أصرَّ عليه الملكُ الصالحُ؟ هل كان قائداً فاشِلاً؟ هل كان يجهلُ حجمَ الخَطَرِ المُحْدِقِ بمملكتِهِ؟

لا هذا ولا ذاك. ولكنَّه كان القائدَ المحنَّكَ الخبيرَ بفنِ الحَرْبِ والمُتَمَرِّسَ بأساليبِ القِتالِ. ولم يكنْ تَلَكُّؤُهُ إلاّ عن رأيٍ صائبٍ وحكمةٍ بالغةٍ.

فأغلبُ الظنِّ أن الملكَ الصالحَ لم يكنْ على يَقينٍ من نَوايا خصمِهِ الحقيقيَّةِ، وأنه كان يجهلُ كلَّ شيءٍ عن المكانِ والزَّمانِ اللَّذينِ سيضربُ فيهما لويسُ ضربتَهُ، وفي مثلِ هذهِ الحالِ يكونُ أيُّ تقديرٍ غيرِ صحيحٍ لخُطَطِ العدوِّ سبباً في حصولِ كارثةٍ ماحقةٍ. فلو حَشَّدَ الملكُ الصالحُ كلَّ قواتِهِ في الشامِ، ثم وجَّهَ لويسُ ضربتَهُ نحو مِصرَ، لأدَّى ذلك إلى احتلالِ مصرَ كلِّها قبلَ أن تَصِلَ إليها القوّاتُ المُتَمَرْكِزَةُ في

الشامِ. والعكسُ صحيحٌ أيضاً، إذْ لو حشَّد الصالحُ قواتِهِ كلَّها في مِصْرَ، ثم هاجمَ لويسُ سواحلَ الشامِ، لأدّى ذلك إلى خسارةِ الشامِ كلِّها قبلَ وصولِ أيِّ مَدَدٍ إليها من مصرَ.

ولعاملِ التَّوْقيتِ ههنا قيمةٌ كبيرةٌ جداً، إذْ لا يكفي أن نكونَ على يقينٍ من مِحْوَرِ هجومِ العدوِّ فقطْ، بل لا بدَّ أيضاً من معرفةِ الوقتِ الذي سيهاجمُ فيه بالضَّبْطِ، ثم التحرُّكِ لمجابهتِهِ قُبَيْلَ ساعةِ الصِّفْرِ بوقتٍ يسيرٍ، لأن أيَّ استعدادٍ مُبكِّرٍ ستصلُ أخبارُهُ إلى العدوِّ، وستجعلُهُ يُغَيِّرُ خُطَّتَهُ ويضرِبُ في الجِهةِ الضَّعيفةِ، ذلك أن العدوَّ بسببِ اتخاذِهِ البحرَ وسيلةً لتنقُّلاتِهِ يملكُ سرعةً في الحركةِ ليستْ مُتَوَفِّرَةً لجيوشِ المسلمينَ البريَّةِ، فالمسافةُ من سواحلِ قُبْرُصَ إلى سواحلِ الشامِ لا تتطلَّبُ من أسطولِ لويسَ أكثرَ

من يومٍ وليلةٍ، والمسافةُ بين قبرص ومصرَ لا تحتاجُ إلى أكثرَ من يَوْمينِ أو ثلاثةٍ في أَسوأ الأحوالِ الجويَّةِ، في حينِ تحتاجُ الجيوشُ الإسلاميةُ إلى أكثرَ من ثلاثةِ أسابيعَ لكي تقطعَ المسافةَ بينَ الشامِ ومِصرَ.

لكلِّ هذهِ الأَسبابِ قبع المَلِكُ الصالحُ في الشامِ يُراقِبُ العدوَّ و يتسقَّطُ أخبارَهُ. وليسَ بعيداً أنْ يكونَ اختيارُهُ الشامَ مركَزاً للتربُّصِ والمراقبةِ كان بسَبَب قُرْبِها من قبرصَ، ممّا يُتيحُ لتقاريرِ مخابراتِهِ أن تَصِلَ إليه بأسرعَ ممّا لو كانَ في مصرَ، أو ربّما كان يتوقَّعُ أن يوجِّهَ خصمُهُ هجومَهُ نحوَ الشامِ أكثرَ من توقُّعِهِ أن يكونَ هذا الهجومُ نحو مِصْرَ، وذلك لأنَّ عمليّاتِ الإنزالِ على الساحلِ الشاميِّ هي آمَنُ على الجيشِ الغازِي ممّا لو كانتْ على سواحِلِ مصرَ، وذلك لما

يملكُهُ هذا الجيشُ من رأسِ جِسْرٍ على الساحلِ الشاميِّ يتمثَّلُ ببعضِ المدنِ الساحليةِ مثلِ عكّا وغيرِها ممّا كانَ لا يزالُ في حوزةِ الصليبيِّينَ السابِقينَ.

ومهما يكنْ من شيءٍ، فإنَّ الملكَ الصالحَ رسمَ لِمعركتِهِ القادمةِ خُطَّةً هي غايةٌ في الدِّقَّةِ والبَراعةِ، بل هي مَزيجٌ من خُطَّتَينِ أولاهما دِفاعيةٌ للمرحلَةِ الأولى، والثانيةُ هجوميةٌ للمرحلةِ الأخيرةِ. ولعلَّه استوحى خطتَهُ هذهِ مِن خطةِ أبيهِ الملكِ الكاملِ الذي طبَّقَها قبلَ ثلاثينَ سنةً، وهزمَ بها جَيْشاً للصليبيِّينَ كانَ يَعُدُّ مِائتَيْ أَلفِ رجلٍ، ونعني به جيشَ الحملةِ الخامسةِ بقيادةِ جان دي بريين.

و يُمكنُ تلخيصُ الخطوطِ البارزةِ لهذهِ الخطةِ فيما يَلي:

١ ـــ عدمُ القيامِ بأيَّةِ مبادرةٍ قبلَ التيقُّنِ من نوايا العدوِّ، ومعرفةِ أينَ ومتى سيضرب؟

٢ ـــ بعد معرفةِ مِحْوَرِ الهجومِ وتوقيتِهِ يقومُ الملكُ الصالحُ بالتمركزِ على خطِّ الهجومِ لتثبيتِهِ، أو لعرقلتِهِ على الأقَلِّ. ويجبُ أنْ يتمَّ ذلك بفرقةٍ خفيفةٍ من الفرسانِ، كما يجبُ أن يحدثَ ذلك قبلَ موعدِ الهجومِ بوقتٍ قليلٍ، وأن يحدثَ في سرعةٍ وسِرِّيَّةٍ تامَّتَينِ، لِكَيْلا يكونَ أمامَ العدوِّ فرصةٌ لتغييرِ خُططِهِ.

٣ ـــ يَجرِي العملُ في المرحلةِ الأولى بخطةٍ دفاعيةٍ تقومُ على مُناوشةِ العدوِّ ومُشاغلتِهِ لإِرباكِ حركتِهِ ومنعِ تقدُّمِهِ إلى الداخلِ بسهولةٍ ويُسْرٍ. وفي حالِ هجومِ العدوِّ على مدينةٍ ساحليةٍ مُهِمَّةٍ يَجري العملُ على تَقْوِيَةِ المُنشآتِ الدِّفاعيةِ لهذه المدينةِ

لتثبيتِ العدوِّ عندَها أَطولَ مدةٍ ممكنةٍ.

٤ - بعدَ أن يتمَّ نزولُ العدوِّ على الساحلِ، ويُصبحَ رجوعُهُ إلى البحرِ أمراً شاقّاً أو مُكلِّفاً وقتاً طويلاً، يجري استدعاء القُوّاتِ من أطرافِ المملكةِ وحَشْدُها في الخطِّ الثاني، وفي أَثناءِ ذلكَ تكونُ الطلائعُ تشاغلُ العدوَّ في الخطِّ الأولِ.

٥ ــ بعدَ أن تتمَّ عمليةُ التَّحشُّدِ ينتقلُ الجيشُ الاسلاميُّ من موقفِ الدِّفاعِ إلى موقفِ الهجومِ، ويَجري الالتحامُ بالعدوِّ لِسَحْقِ قُوّاتِهِ بعدَ تَطْويقِهِ.

هكذا راحَ الملكُ الصالحُ يُطبِّقُ خطتَهُ الذكيةِ في هدوءٍ وثباتِ جَنانٍ، وهو مطمئنٌّ كلَّ الإطمِئنانِ إلى سلامةِ تدبيرِهِ، غيرُ عارفٍ بما كانتْ تُخَبِّئُهُ له الأقدارُ من مُنَغِّصاتٍ. ذلك أَنَّه ما كادَتِ الأخبارُ تَصِلُهُ بقربِ موعِدِ تحرُّكِ العدوِّ نحوَ مدينةِ دِمياطَ على

الساحلِ المِصرْيِّ حتى داهمَهُ المَرَضُ الذي أقعدَهُ عن الحركَةِ وجعلَهُ طريحَ الفِراشِ.

لقد أصِيبَ الملكُ الصالحُ بالْتِهاب رِئَوِيٍّ حادٍّ، وبِقَرْحَةٍ خَبيثةٍ في إحدى ساقَيْهِ، بحيثُ غدا عاجِزاً تَمامَ العجزِ عن القِيامِ والحركةِ.

وفكَّر الملكُ الصالحُ فرأى أنَّ بقاءهُ في الشامِ سيؤدِّي إلى انهيارِ خطتِهِ انهياراً كامِلاً، ووجدَ أنَّ انتقالَهُ إلى مصرَ أمرٌ ضروريٌّ مهما كانتْ عواقِبُهُ على حالتِهِ الصحيةِ، فأمرَ بأن يُحملَ على مَحِفَّةٍ، وأَنْ يمضوا به في أقصى سرعةٍ ممكنةٍ دونَ مُراعاةٍ لمرضِهِ الذي كان يشتدُّ عليه يوماً بعدَ يومٍ.

وهكذا وصلَ الملكُ الصالحُ إلى مصرَ في أواخِرِ المحرَّمِ من سنةِ ٦٤٧هـ (١٢٤٩م). ودونَ أيِّ إبطاءٍ راحَ يُنَفِّذُ خطتَهُ المرسومةَ بكلِّ دقةٍ وسرعةٍ، فنزلَ

بأشْمومِ طَنَاحٍ واتَّخذها مَقَرّاً لقيادتِهِ، ومركَزاً لِتحشُّداتِهِ، وخطّاً دِفاعيّاً ثانياً له في معركتِهِ، أما خطُّهُ الدفاعيُّ الأولُ، وهو مدينةُ دِمياطَ، فقد أمرَ بتحصينِ أسوارِها وشَحْنِها بالأَعْتِدَةِ والمُؤَنِ الوافرةِ التي تكفي أهلَها وَلَوِ امتدَّ الحصارُ أشهراً كثيرةً. كما عَهِدَ بالدفاعِ عنها إلى رجالٍ أشِدّاءَ من قبيلةِ كِنانةَ كانَ يَثِقُ بشجاعتِهِم وإخلاصِهِم، وفي الوقتِ نفسِهِ أرسلَ الأمير فخرَ الدينِ يُوسفَ بنَ شيخِ الشُّيوخِ قائدَ الجيشِ على رأسِ قُوَّةٍ إلى البرِّ الغربيِّ لدِمياطَ ليكونَ في مُقابلةِ الفِرَنْجِ عندَ وُصولِهِم إلى الشاطىءِ، و يقومَ بعمليةِ المناوشةِ لقُوّاتِ العدوِّ لإرباكِ عمليةِ إنزالِهِ، وإيقاعِ أكبرِ الخسائرِ المُمكنةِ في قواتِهِ وأعتدتِهِ.

ولم يكتفِ السلطانُ صالحٌ بذلك، بل أصدرَ أمرَهُ من أشمومِ طناحٍ إلى نائبِهِ في القاهرةِ الأميرِ

حُسامِ الدينِ بن أبي عليٍّ بإعدادِ قِطَعِ الأسطولِ، وشَحْنِها بالعَتادِ والرجالِ، ثم إرسالِها بسرعةٍ لتكونَ بإزاءِ المسلمينَ المعسكرينَ على ضِفافِ النيلِ، وفي مُواجهةِ الأسطولِ المُعادِي الذي ربما استطاعَتْ بعضُ قِطَعِهِ التسللَ إلى المياه النيليَّةِ.

وَلْنَتْرُكِ السلطانَ الآنَ يُواصلُ استعداداتِهِ، ولْنذهبْ إلى قُبرصَ لنرى ما كان يَجري في الجانبِ الآخَرِ.

من قبرص إلى دمياط

بعدَ أنْ أعادَ الملكُ لويسُ تموينَ جيشِهِ، ورتَّبَ أمرَ إمداداتِهِ، أصدرَ أمرَهُ بالتحرُّكِ نحوَ دِمياطَ على المَصَبِّ الشرقيِّ لنهرِ النِّيلِ.

وفي يومِ الخميسِ الثالثَ عَشَرَ من أيّارَ

١٢٤٩م ــ صفر ٦٤٧هـ أقلعَ الأسطولُ الفِرَنجيُّ من ميناء لِيمازولَ بقُبرصَ إلى عُرْضِ البحرِ.

بدأتِ الرِّحلةُ في جوٍّ مُمْتِعٍ بديعٍ لا يُعكِّرُ صفوَهُ شيءٌ. ولا عجبَ فالوقتُ كانَ ربيعاً، وكانتِ السَّماءُ صافيةً، والشمسُ ساطعةً تُرسِلُ أشعَّتَها الذهبيَّةَ على صَفحةِ الماءِ فتنعكسُ عنها في لمعانٍ غَريبٍ.

وَفُجَاءةً تغَيَّرَ كلُّ شيءٍ. فقدِ أكْفَهرَّ الجَوُّ، وتلَبْدَتِ الغُيومُ، وومضَ البرقُ، وقصفَ الرعدُ، ثم انهمرَ المطرُ كأفْواهِ القِرَبِ، ثم هبَّتْ عاصفةٌ عاتيةٌ هاجَ لها البحرُ وارتفعتْ أَمواجُهُ كالجبالِ.

وفي هذهِ الثورةِ العاتيةِ للطبيعةِ تَشَتَّتَ شَمْلُ الأسطولِ المُعادي، وقذفتِ الرِّياحُ الهُوجُ جانباً

كبيراً من سفنِهِ صَوْبَ عكّا وسواحلِ الشامِ، حيثُ بقيَتْ عاجزةً عن اللَّحاقِ بالمَلِكِ مدّةً طويلةً كما سَنَرى.

ولما سكتتِ العاصفةُ استأنفتِ الحملةُ رِحْلَتَها. وقُبَيْلَ فجرِ يومِ الجمعةِ الرابعِ من حَزِيرَانَ ٢٠ صفر وصلتْ إلى مَصَبِّ الفرعِ الشرقيِّ للنيلِ، وأرسَتْ بإزاء البرِّ الغربيِّ لِدِمياطَ.

أما دِمياطُ هذهِ فكانتْ تَقَعُ على الجانبِ الأيمنِ للفَرْعِ الشرقيِّ للنيلِ عند اتصالِهِ بالبحرِ. وهيَ إحدى المُدُنِ المصريَّةِ العريقةِ في القِدَمِ التي يَرْجِعُ تأسيسُها إلى ما قبلَ الفتحِ العربيِّ. وكانت في غايةِ الحَصانةِ، تحيطُ بها الأسوارُ والابراجُ والقلاعُ من كلِّ جانبٍ. كما كانَ عندَ مَدْخَلِها بُرْجٌ ضخمٌ حُشِدَ فيه المُقاتِلونَ. وكانت السلاسلُ الحديدِّيةُ المتينةُ تمتدُّ

منه إلى بُرْجٍ مُقابلٍ على الضِّفَّةِ الأخرى للنهرِ لمنعِ سفنِ العدوِّ من العُبورِ في النيلِ والوُصولِ إلى المدينةِ.

ولم يكنْ مع الملكِ لويسَ حينَ وصولِهِ إلى الساحلِ سوى ثُلُثِ الحملةِ على وَجهِ التَّقريب. أمّا الباقي فقد جَنَحَتْ بِهِ الرِّياحُ العاصفةُ كما رأيْنا. ولهذا نصحَ المستشارونَ الملكَ بأن ينتظرَ هذا الجانبَ المتخلِّفَ من الأسطولِ قبلَ النزولِ إلى أَرضِ مصرَ. ولكنَّه رفضَ رأيَهُم قائلاً إن التردُّدَ ربّما شجَّعَ العدوَّ، وإنَّه ليس هناكَ مرفأ أمينٌ يَلجأ إليه بسفنِهِ في انتظارِ وُصولِ السُّفُنِ المُشَتَّتَةِ. ولكنَّهُ قبلَ النزولِ الذي قرَّرَ أن يكون في الغَدِ، أرسلَ إلى السُّلطانِ كتاباً يقولُ فيه:

ـــ «أما بعدُ، فإنَّه لم يَخْفَ عنك أني أَمينُ الأمَّةِ العِيسَوِيَّةِ، كما أني أَعترفُ بأنك أمينُ الأمَّةِ

المحمديَّةِ، وإنَّه غيرُ خافٍ عنك أنَّ أهلَ جزائرِ الأندلس يحملون إلينا الأَمْوالَ والهدايا، ونحنُ نسوقُهمُ سَوْقَ البَقَرِ، ونقتُلُ منهم الرِّجالَ، ونُرَمِّلُ النساء، ونستأسِرُ البناتِ والصِّبْيانَ، ونُخْلِي منهمُ الدِّيارَ.. وقد أَبْدَيْتُ لك ما فيه الكفايةُ، وبَذَلْتُ لك النُّصْحَ إلى النهايةِ. فلو حَلَفْتَ لي بكلِّ الأَيْمانِ، ودخلْتَ على القسوس والرُّهْبانِ، وحملْت قُدّامِي الشَّمْعَ طاعةً للصُّلبانِ، ما ردَّني ذلكَ عن الوُصولِ إليك، وقتالِكَ في أعزِّ البِقاعِ عليك... وقد عرَّفْتُك وحذَّرتُك من عساكرَ قد حضرتْ في طاعَتي، تملأُ السهلَ والجبلَ، وعددُهُم كعددِ الحَصى، وهم مُرْسَلونَ إليك بأسيافِ القَضاءِ».

فلما وصلَ الكتابُ إلى السُّلطانِ، وقُرِىء عليه وهو على فِراشِ المَرَضِ، اغْرَوْرَقَتْ عيناهُ بالدُّموعِ

وقالَ:

ــ إنّا للهِ وإنّا إليه راجعونَ.

واستدعى كاتبَ الإنشاءِ بالديارِ المصريةِ، وهو الشاعرُ المشهورُ بهاءُ الدينِ زُهَيْرٌ، وأمرَهُ بإرسالِ ردٍّ يَليقُ بهذا المَلِكَ المغرورِ، فكتبَ الشاعرُ الردَّ بِخَطِّهِ. وهذا نصُّهُ:

ــ «بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم، وصلّى اللهُ على سيِّدِنا محمدٍ رسولِ اللهِ وآلِهِ وصحبِهِ أَجمعينَ، والحمدُ للهِ ربِّ العالِمينَ، والعاقبَةُ للمتِقينَ، ولا عُدْوانَ إلاّ على القومِ الظالِمينَ. مِن عندِ الذائدِ (المُدافِعِ) عن حُرَمِ المُسلِمينَ، والقارِىءِ كتابَ ربِّ العالِمينَ المُنْزَلِ على خَيْرِ المُرسَلِينَ محمدٍ صلّى الله عليه وسلَّمَ، وعلى آلِهِ الطاهرِينَ، وأصحابِهِ الأنصارِ والمهاجرِينَ، صلاةً دائمةً إلى يومِ الدِّينِ.

«أما بعدُ، فقد وصلَ كتابُكَ، وفَهِمْنا لفظكَ وخِطابَكَ، وها أنا قد أتيتُكَ بالخَيْلِ والرجالِ، والخزائنِ والأَمْوالِ، والعَساكِرِ والأَثْقالِ، والقُيودِ والأَغْلالِ. فإنْ كانت لك، فأنتَ الساعِي وقد أَمِنْتَ الناعِي، وإن كانت عليك، فأنتَ الباغِي لحتفِكَ (مَوْتِكَ)، والجادعُ (القاطعُ) أَنفَكَ بظِلْفِكَ (بظُفْرِكَ).. ولمّا وصلَ إلينا كتابُكَ، أَعطيناكَ جوابَكَ، ومَنْ يهدِهِ الله فهو المُهْتَدِي، ومَنْ يُضلِلك فلَنْ يَجِدَ له وَلِيّاً مُرْشِداً.. وفي كتابِكَ تُهدِّدُنا بِجُيوشِكَ وأَبطالِكَ وخيلِكَ ورِجالِكَ! أَلا تعلمُ انّنا نحن أرْبابُ الحُتوفِ (جمع حَتْف = مَوْت)، وفَضَلاتُ السّيوفِ (أي إِنَّ جسمَ كلِّ واحدٍ منّا هو كالجُزْءِ مِنَ السَّيفِ الذي يَحْمِلُه). ما نزلْنا على حِصْنٍ إلاّ هَدَمْناهُ، ولا قُتِلَ منّا فارسٌ إلاّ جَدَّدْناهُ، ولا طغى

علينا طاغٍ إلا دمَّرْناهُ. فلو نظرْتَ أَيُّها المغرورُ حدَّ قُلوبِنا، وجِدَّ حُروبِنا، لَرَأَيْتَ فرساناً أَسِنتهم (رماحُهُم) لا تَمَلُّ، وسيوفُهُم لا تكِلُّ (لا تَضْعُفُ)، وقلوبُهُم لا تَذِلُّ، وَلَعَضَضْتَ يَدَكَ بسِنِّ النَّدم، ولأَخَّرْتَ تَحْريكَ قَدَمٍ عن قَدَمٍ. فلا تُعْجِبْكَ العساكرُ التي بينَ يَدَيْكَ، فهو يومٌ أولُهُ لنا وآخِرُهُ عليك..

«فإذا أتاكَ كِتابِي هذا فَلْتكُنْ منه بالمِرْصادِ، على أَوَّلِ سُورةِ النَّحْلِ وآخِرِ سُورةِ صاد: (أَتى أَمرُ اللهِ فلا تَسْتَعْجِلُوهُ) و(لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِيْنٍ). هنالك تتطاوَلُ نحوَكَ الأعناقُ، وتشخَصُ صَوْبَكَ العُيونُ، ويَشُوبُكَ الوَيْلُ، وتَسوءُ بكَ الظُّنونُ. و(سَيَعْلَمُ ٱلَّذِيْنَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ). ونعودُ إلى قولِ اللهِ تباركَ وتَعالى وهو أَصْدقُ القائلينَ:

﴿ كَمْ مِنَ فِئَةٍ قَلِيْلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيْرةً بإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ اٰالصّابِرِيْنَ ﴾. والسلامُ».

المرحلة الأولى

(معارك إنهاك واستنزاف)

نزولُ الحملةِ إلى البَرِّ:

أَسرعَ الملكُ الفرنسي ‌إلى الاجْتماعِ بِكِبارِ رجالِهِ وأَركانِ حَرْبِهِ في سفينتِهِ للتَّداوُلِ فيما يجبُ عملُهُ.. واستقرَّ الرَّأْيُ على النزولِ إلى برِّ دِمْياطَ في يومِ السبتِ، وهو اليومُ التالي لوُصولِهم.

ولم يَجِد الفرنسيُّونَ كبيرَ مَشَقَّةٍ في النُّزولِ إلى الماءِ الضَّحْلِ الذي يُقارِبُ الشَّاطِىءَ، فنزلَ إلى البرِّ ألوفٌ من الفرسانِ تحتَ خُوذَاتِهِمُ الفُولاذِيَّةِ اللاّمعةِ

ودُروعِهِم الثَّقيلةِ حامِلينَ سُيوفَهُم المستقيمةَ ذاتَ الحَدَّيْنِ ورماحَهمُ الطَّويلةَ، مُمْتطينَ ظُهورَ الخَيْلِ، يَتْبعُهُم حَمَلَةُ القِسِيِّ الأَشِدّاءُ، والصفوفُ المتراصَّةُ التي تحجُبُ الأفُقَ مِن المُشاةِ. كانَ مَنْظرُهُم رائعاً وهم يملؤون رِحابَ الشاطِئِ وعلى رَأْسِهِم مَلِكُهُم وقدِ ارْتفعَتْ رايتُهُ المَلَكِيَّةُ فوقَهُ. أَمّا زوجتُهُ الملكةُ مارغريت فقدْ بَقِيَتْ على ظهرِ السفينةِ المَلَكِيَّةِ إلى حينِ يُصبحُ نزولُها مأمونَ الخَطَرِ.

أمّا قُواتُ فخرِ الدينِ بنِ الشيخِ المكلَّفةُ باستقبالِ الحَمْلَةِ وتثبيتِها على الشاطِئِ، فنترُكُ وصفَها إلى السيِّدِ «جوانفيل» مُؤَرِّخِ الحَمْلَةِ وأَحَدِ قادَتِها إذْ يقولُ:

ــ «وصلَ المَلِكُ أَمامَ دِمْياطَ، فوجدْنا هناك كلَّ جُيوشِ السُّلطانِ تَقِفُ على الشاطِئِ: كتائبُ

جميلةٌ تَسُرُّ الناظرِينَ، ذلك أنَّ أسلحةَ السُّلطانِ قد صُنِعَتْ مِن ذَهَبٍ، فكانتِ الشمسُ تُشرقُ على هذهِ الأسلحةِ فتزيدُها بَريقاً ولَمَعاناً. وكانتِ الجَلَبَةُ التي يَأتونَها بصُنوجِهِم وأَبْواقِهِم الشرقيَّةِ تُدْخِلُ الرُّعْبَ في أَفْئِدَةِ (قلوب) الذين يَسْمعونَها».

كانَ طبيعياً من السيِّدِ جوانفيل، وهو الذي يَرى الشرقَ أَوَّلَ وَهْلَةٍ، أن يَقَعَ في عِدَّةِ أَخطاءٍ في وصفِهِ هذا، فلم يكُنْ ما رآهُ هو كلَّ جيوشِ السُّلطانِ، وإنما هي فِرْقَةُ المماليكِ البحرَّيةِ فقطْ التي كُلِّفَتْ بأن تَتَلقّى الصَّدْمَةَ الأولى، وأَنْ تُشاغِلَ الغُزاةَ رَيْثَما تتحشَّدُ جُيوشُ السلطانِ في الخطِّ الثاني عندَ أَشْمُومِ طَناحٍ. أما أسلحةُ السلطانِ فلم تكنْ مصنوعةً مِن الذَّهَبِ كما زعمَ السيِّدُ جوانفيل. فأَيُّ أحمقَ يخطرُ له أن يجعلَ من هذا المَعْدِنِ الطَّرِيِّ سِلاحاً له يَقِيهِ

ضَرَباتِ العَدُوِّ القويّةَ؟ ولكنَّ الذين جاؤوا يحلُمُونَ بذهبِ الشَّرْقِ يَرَوْنَ في كلِّ شيءٍ لامعٍ ذَهَباً!!

وعلى كلِّ حال فقد بدأَ الصِّدامُ بينَ الفريقَينِ منذُ وَطِئَتْ أَقدامُ الغُزاةِ أَرضَ الساحلِ واستماتَتِ القُوّاتُ الفرسانُ والمشاةُ، يَرْمونَ النازلينَ بالسِّهامِ والرِّماحِ، ففتكُوا بعددٍ مِنْهم، ومع ذلك تمكَّنَ الفِرَنْسيّونَ من النزولِ إلى البرِّ بسببِ كَثْرَتِهِمُ العَدَدِيَّةِ.

وما إِنْ نزلَ المَلِكُ الفرنسيُّ حتى نُصِبَتْ له خيمةٌ حمراءُ. كذلك ضَرَبَ باقي الصليبيينَ خيامَهُم استعداداً للمعركةِ القادمةِ. وحينَ تَمَّتْ عمليةُ الإنزالِ، وشعرَ الفرنسيّونُ أنهم جاهزونَ لخَوضِ المعركةِ، استُؤنِفَ القتالُ الذي استمرَّ مِنَ الصَّباحِ الباكرِ حتى الظَّهيرةِ، وانتهى بكسبٍ مُؤَقَّتٍ أحرزَهُ

الفِرَنْجُ في ذاك اليومِ.

وقد استُشْهِدَ في هذا اليومِ عددٌ من أَبطالِ المسلمينَ، مِنهم الأميرُ نجمُ الدينِ بنُ شيخِ الإسلامِ، والأميرُ صارمُ الدينِ أَزْبَكُ الوزيريُّ من أَخِصَّاءِ المَلِكِ الصالحِ أَيُّوبَ، استُشْهِدا بعدَ أن أَبْلَيا في القتالِ أَحسنَ البَلاءِ.

سقوط دمياط:

كانَ الأميرُ فخرُ الدينِ بنُ الشيخِ قد أَرْسَلَ، وهو في انتظارِ وصولِ الحملةِ، عِدَّةَ رسائلَ إلى السلطانِ لم يَتَلَقَّ أيَّ ردٍّ عليها. ولم يَعْبأْ حينئذٍ بذلك لقلَّةِ أهميَّةِ الرسائلِ، ولِعلمِهِ بأنَّ السلطانَ في حالةٍ سيِّئَةٍ من المرضِ والعَجْزِ. ولكنَّه حين وصلتِ الحملةُ، وأطلقَ حَمامَ الزاجِلِ بِخَبَرِ وصولِهَا، ثم لم

يَتَلَقَّ أيَّ ردٍّ على هذا النبأِ الخَطيرِ، خَشِيَ أن يكونَ السلطانُ قد ماتَ، وأن يكونَ لموتِهِ أثرٌ في مُجْمَلِ العمليّاتِ العسكرِّيةِ، ولا سيَّما في موقفِهِ هو حيثُ يُجابِهِ قُوّاتٍ تتفوَّقُ عليه من حيثُ العَدَدُ تفوُّقاً ساحِقاً. ولهذا قرَّرَ الانْسحابَ والارْتدادَ إلى مَقَرِّ القيادةِ العامَّةِ في أشموم طَناحٍ ليستطلعَ جَلِيَّةَ الأَمْرِ.

وعندَ حُلولِ الظَّلامِ بدأَ فخرُ الدينِ بسحبِ قُواتِهِ من الجانبِ الغربيِّ إلى الجانبِ الشرقيِّ الذي فيه دِمْياطُ عبرَ الجِسْرِ الخشبيِّ المُقامِ على نهرِ النّيلِ. ثم مَضى في طريقِهِ جُنوباً إلى مُعسكَرِ السلطانِ. ولكنَّ الجُنْدَ نَسُوا في عَجَلَتِهِم أن يُحَطِّموا الجِسْرَ، فانقضَّ الفِرَنْجُ عليه واحتلّوهُ، وانفتحَ أَمامهمُ الطريقُ إلى مدينةِ دِمياطَ.

لما رأَتْ حاميةُ دِمياطَ من عَرَبِ بني كِنانةَ عُبورَ الجيشِ ثم انسيابَهُ نحو الجُنوبِ، دَبَّ الذُّعْرُ في صُفوفِها

فتركت المدينة ولَحِقَتْ بالجيشِ المُنْسَحِبِ.

لم يبقَ بِدِمياطَ بعدَ انْسحابِ الجُندِ والحاميةِ الكِنانيَّةِ غيرُ أَهْلِها، فقرَّرَ هؤلاءِ أن يقوموا بعملٍ سريعٍ يُفَوِّتون به على الفِرَنْجِ الإفادَةَ مِن المدينةِ التي تُرِكَتْ بغيرِ حِمايةٍ، فأَشعَلوا النارَ في دارِ السِّلاحِ، وكانتْ تُسمّى «الزَّرَدْخاناه»، وفي سُوقِ المدينةِ ومخازِنِها حيث تكدَّسَتِ البضائعُ والسِّلَعُ، وكذلك في بعضِ الدورِالكُبرى التي كانتْ مشحونةً بالمُؤَنِ والعَتادِ، حتى لا يقعَ كلُّ ذلكَ غنيمةً في أَيدي الأَعداءِ. وبعدَ أن تَمَّ إتلافُ كُلِّ ما يُمكنُ أن يُفِيدَ مِنه العدوُّ انْطلَقَ أهلُ دِمياطَ يَهيمونَ على وُجوهِهِم طَوالَ اللَّيلِ، ولَحِقُوا بالجُنْدِ في أشْمومِ طَناحٍ، ثم واصَلوا السيرَ نحوَ القاهرةِ وهم في حالةٍ يُرْثى لها من التَّعَبِ والإعياء.

في صبيحةِ اليوم ِالتالي، وهو يومُ الأحد السادسُ من حَزِيرانَ، دخلَ الفرنجُ مدينةَ دمياطَ ليجدوها كَوْمَةً مِن التُّرابِ وقدِ ارتفعَتْ أَلْسِنَةُ اللَّهَبِ عالياً في سَمائِها. ومع ذلك فقد غَنِمُوا كمياتٍ كبيرةً من العَتادِ والمُؤَنِ ممّا لم يَتمكَّنِ الجَالونَ عَنِ المدينةِ مِن تدميرِهِ. كما اصطدَمُوا بجماعةٍ من شُجعانِ بني كِنانةَ كانوا قد أَبَوُا اللَّحاقَ بالمُنهزِمِينَ، وظلّوا في المدينةِ للدِّفاعِ عَنْها، ولكنَّ شجاعَتَهُم لم تُغْنِ عنهم شيئاً، واحتلَّ الفرنجُ أَمْنَعَ مدينةٍ على الساحلِ المِصْريِّ بغيرِ جُهْدٍ يُذْكَرُ.

وصلَ المُنهزمونَ إذن إلى أشموم ِطَناحٍ. وما كادَ السلطانُ يعلمُ بالخبرِ حتى انتفضَ في فراشِهِ كالأَسَدِ الجريحِ، وقد أَلْهَبَ ثائرتَهُ فِرارُ الحاميةِ في دِمياطَ، فأَصدَرَ أمرَهُ باعدام ِخمسينَ رجلاً من رجالِها

المسؤولِينَ. وعبثاً حاولَ هؤلاءِ الدِّفاعَ عن أنفسِهِم، وتسويغَ مَسْلكِهِم، فإنَّه صاحَ فيهم إنّهم يستحقّون الموتَ إذْ سَلَكوا مَسْلَكَ الجُبناءِ بِفِرارِهِم قبلَ تَلَقّي أوامرِهِ. ونُفِّذَ الحُكْمُ بالخمسينَ بعَد استصدارِ فَتْوى من فُقَهاءِ مصرَ بِحِلِّ قتلِهِم ثم صُلِبَتْ جُثَثُهُم على أشجارِ النخيلِ كما هم بثيابِهِم ومَناطِقِهم.

وهَمَّ السلطانُ أن يفعلَ بمملوكِهِ فخرِ الدينِ ما فعلَهُ بزعماءِ الكِنانيَّة، ولكنَّه رأى أن الموقفَ بالغُ الخطورةِ، فكتمَ غَيْظَهُ، وأسرَّهَا في نفسِهِ إلى أن تنكشِفَ الغُمَّةُ، و يزولَ الخَطَر المُحدِقُ بالبلادِ.

من المسؤول؟

وهنا يَحسنُ أَنْ نقفَ وقفةً قصيرةً لنناقشَ ما حدثَ.

لا شكَّ أن فخرَ الدينِ ارتكبَ أخطاءً كثيرةً

وفادحةً. فقد أخطأَ أولَ مرةٍ حينما قرَّرَ الانسحابَ دونَ أنْ يتلقى أَمراً بذلك. وأما قلقُهُ مِن عَدَمِ تلقِّيهِ رداً على رسالتِهِ الحَمَامِيَّةِ فلا يسوِّغ شيئاً، إذ كان بإمكانِهِ أن يَبعثَ رسولاً يعودُ إليه بالأَخبارِ والأوامرِ، ولم يكنْ هذا يستغرقُ وقتاً طويلاً، فالمسافةُ بينَ مُعَسكرِهِ في البرِّ الغربيِّ ومُعسكرِ السُّلطانِ في أشمومِ طَناحِ قصيرةٌ جداً، ويستطيعُ فارسٌ خفيفٌ أن يقطعَها ذَهاباً وإياباً في ليلةٍ واحدةٍ.

ومع كل ذلك، يُمكنُ أن نجدَ لفخرِ الدينِ عُذراً يُسَوِّغُ خطأَه هذا، فقد عُرِفَ هذا القائدُ بالشجاعةِ الفائقةِ وعُمقِ البَصَرِ بالشؤون العَسكريَّةِ، وهذا ما جَعَلَهُ موضعَ ثِقةِ السلطانِ المُطْلَقَةِ بحيثُ أسندَ إليه قِيادةَ أهمِّ فِرَقِهِ وهي فِرقةُ المماليكِ البحريةِ. فليس

معقولاً، والحالةُ هذه، أن ينسحبَ هذا القائدُ الشجاعُ المحنكُ لمجردِ أنَّ قَلَقاً ساورَهُ مِن جِهةِ صِحَّةِ السلطانِ المريضِ.

لا بدَّ أن الأمرَ كانَ أَخطرَ مِن ذلك. ونحنُ نُرجِّحُ أنَّ هذا القائدَ فوجِىءَ بضخامةِ الحَمْلَةِ الفِرَنْسيّةِ، وأنه بعدَ مناوشاتِهِ الأولى مَعها، وبعدَ معركتِهِ الصَّباحيةِ العَنيفةِ، أدركَ بقناعةٍ كافيةٍ أنَّه لا قِبَلَ له بِها، وأن فِرْقَتَهُ الصغيرةَ نُسبياً ستكونُ في الغدِ أمامَ خطرٍ حقيقيٍّ يتهدَّدُها بالفناءِ وهي محصورةٌ بينَ النيلِ مِن خَلْفِها، وجحافلِ العدوِّ التي تَملأُ الفضاءَ من أَمامِها. لهذا قرَّرَ الانسحابَ على أنّه أَسْلَمُ إِجراءٍ عسكريٍّ يحفظُ فرقتَهُ من تدميرٍ مُحَقَّقٍ.

إنَّ المصادرَ التاريخيةَ لا تذكرُ شيئاً عن مضمونِ رسالةِ فخرِ الدينِ إلى السلطانِ التي انطلقَ بها حَمامُ

الزاجِلِ سوى أنَّها إخطارٌ بوصولِ الحَمْلةِ. ولكننا لا نستبعدُ أن تكونَ قد تضمَّنَتْ بالإضافةِ إلى ذلك استئذاناً بِالانْسحابِ وبَياناً بدقَّةِ المَوْقفِ وخطورتِهِ. فلما لم يصلِ الإذْنُ في الوقتِ المناسبِ، وخَشِيَ فخرُ الدينِ أن يَفُوتَ الأوانُ وتضيعَ الفرصةُ، انسحبَ بفرقتِهِ تحتَ الظلامِ وهو واثقٌ من أنَّ الإذْنَ المطلوبَ هو في الطريقِ إليهِ.

قد يرى القارىءُ أن كلَّ ما قلناهُ لا يَعْدو أنْ يكونَ نوعاً من الخيالِ الذي لا سَنَدَ لَهُ، ولكنَّ الحوادثَ القادمةَ ستبرهِنُ على أنَّه الحقيقةُ بعينِهَا.

ولكنْ إذا أمكنَنَا الاعتذارُ لفخرِ الدينِ عَن خطئهِ الأولِ، فإننا لا نجدُ ما نعتذرُ به له عن خطئهِ الثاني حينَ تركَ لرجالِهِ أمرَ تحطيمِ الجسرِ بعد إتمامِ عمليةِ العبورِ، ولم يُشرفْ بنفسهِ على هذه العمليةِ

المهمةِ، ذلك أن المكلَّفينَ بهذا العملِ نَسُوا في عَجَلَتِهم ما كُلِّفوا بِهِ، فهيَّؤوا للفِرَنجِ فرصةَ عبورٍ سهلٍ أَمينٍ لم يكلِّفْهم وقتاً ولا جُهداً.

كذلك لا نستطيعُ إلاّ أن نعترِفَ أنَّ فخرَ الدينِ أخطأَ ثالثةً عندما أخذَ طريقَهُ نحو أشموم طَناح، ولم يتمركزْ على الضفةِ الشرقيةِ حيثُ كانَ في مأمنٍ من جحافلِ الصليبيين بفضل العائقِ المائي الممتازِ الذي يفصِله عنهم، والذي يتمثلُ بالفَرعِ الشرقيِّ لنهرِ النيلِ.

أما خطوُهُ الرابعُ فهو أنَّه لم يتصلْ بحاميةِ المدينةِ ليشرحَ لها وِجهةَ نظرِهِ في انسحابِهِ. وهذا ما حملَ قائدَ الحاميةِ على أن يُفَسِّرَ الأمرَ على أنه هزيمةٌ حقيقيةٌ. وقد أَدّى ذلك إلى خطأٍ خامسٍ ارتكبَهُ الآنَ قائدُ الحاميةِ عندما فرَّ هو ورجالُهُ من المدينةِ

قَبْلَ أن يتبيَّنَ حقيقةَ الأمرِ.

نعم. كل ما حدث كان أخطاءً باهظةَ الثمنِ، بل كانتْ أخطاءً قاتلةً. ولكن هذا لا يكفي ولا يُفِيدُ. بل المفيدُ حقاً أن نتساءلَ: مَنْ كان المسؤول عن كلِّ هذهِ الأخطاءِ؟

سيقولُ بعضُهم: المسؤولُ عن كلِّ خطأ هو من ارتكبه. وقد يقولُ آخرونَ: بل هو صاحب البريدِ الذي أَخَّرَ الأوامرَ والتّوْجيهاتِ، فانقطعتِ القواتُ المحاربةُ عن قيادتِها المركزيةِ، وراحتْ كلُّ قطعةٍ تتصرفُ بحسبِ ما تمليه عليها ظروفُها الخاصةُ. وقد يتبرَّأ صاحبُ البريدِ من هذه المسؤوليةِ ليُلْقِيَها على عاتقِ مَرض السلطانِ الذي منعَهُ من اتخاذِ القراراتِ المناسبةِ والسريعةِ.

أما نحن فنَرى أن المسؤولَ الأولَ والأخيرَ عن

كلّ ما حدثَ هو النظامُ السياسي المُطَبَّقُ في ذلك العصرِ. فقد كان هذا النظامُ يجعلُ من السلطانِ عِماداً لكل أمرٍ، ومِساكا لكلّ شيءٍ، وإليه يرجعُ الحلُّ والعَقْدُ في كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، فهو الدولةُ، والدولةُ هو. فإذا ماتَ أو قُتِلَ، اختلَّتِ الأمورُ، واضطربَتِ الشؤونُ، ثم لا تستعيدُ توازنَها حتى يأتِيَ سلطانٌ آخرُ يَملكُ من المواهبِ مثلَ ما كان يملكُ السلطانُ الراحلُ، وإلاّ تلاشَتِ الدولةُ وقامتْ مكانَها دولةٌ أخرى.

ويمكنُ أَنْ نُضِيفَ إلى ذلك أمراً آخرَ، وهو نوعُ التربيةِ التي نشَّأَ السلاطينُ عليها جنودَهُم. فنحن نعلم أن فِرقةَ المماليكِ التي أعتمدَ عليها السلاطينُ الأيوبيّونَ لم تكنْ تختلفُ في ظروفِ نشأتِها، وفي طريقةِ تكوينِها، عن فِرقةِ الأَتراكِ التي كوَّنها

المعتصمُ باللهِ العباسيّ من قَبْلُ. في كلتا الحالتَين كان يُؤتى بالأطفالِ الأتراكِ من أسواقِ النّخاسةِ، ثم يُطَبَّقُ عليهم منذُ الصِّغَرِ برنامجٌ قاسٍ في التدريبِ العسكريِ يُصبحونَ في نهايتِهِ فرساناً من الطبقةِ الأولى. وفي خلالِ ذلك يُغرَسُ في نفوسِهِمُ الإجلالُ والإخلاصُ لشخصِ السلطانِ وَحْدَهُ، السلطانِ الذي اشتراهُم وربّاهُم ودرَّبهم.

إنَّ جيشاً من هذا النوعِ قد حُصِرَ ولاؤُهُ في شخصِ الخليفةِ أو السلطانِ، يصبحُ بعدَ موتِ هذا الشخصِ جيشاً بغيرِ ولاءٍ، أو بولاءٍ لنفسِهِ لا للدولةِ التي أُنْشِيءَ لخدمتِها.

لسنا نُنكرُ أنَّ أتراكَ المعتصمِ ومماليكَ الأيوبيّينَ كانوا على قَدْرٍ لا بأسَ بهِ من الحَماسةِ الدّينيةِ. ولكنْ ثَبَتَ من سلوكِ الجميعِ أن ولاءهُم لأنفسِهِم

كانَ يغلب كلَّ ولاءٍ آخرَ للدولةِ أو الوطنِ أو الدِّينِ.

هذانِ الأمرانِ الجوهرّيانِ، ونعني بهما طريقةَ إدارةِ الدولةِ ونوعيةَ الجيشِ، هما اللذان أدركتْهما شَجَرَةُ الدُّرِ إدراكاً جيداً، وتصرفتْ عندَ موتِ السلطانِ على أساسٍ من هذا الإدراكِ السليمِ، فانقذَتِ البلادِ وهي في أَشدِّ حالاتِ الضِّيقِ والحَرَجِ كما سنرى في الصفحاتِ الآتيةِ.

الانسحاب إلى المنصورة

لم تَفُتَّ الهزيمةُ في عزيمةِ السلطانِ المريضِ، بل نهضَ بالرُّغمِ مِن مرضِهِ فأَحْيا الأملَ في قلوبِ رجالِهِ، وشدَّدَ من عزائِمِهم. وبَقَدْرِ ما كانَ في جسمِهِ من الإعياءِ والوَهَنِ تجلَّتْ في رُوحِهِ قوَّةُ الشكيمةِ وعزمُ الرجالِ.

ورأى، والحالةُ هذه، أنَّ الحكمةَ تُوجِبُ عليه

التراجعَ بجيشِهِ جُنوباً إلى المنصورةِ للتحصُّنِ بها، فهي تمتازُ بموقعٍ حصينٍ إذْ يحميها النيلُ غرباً، و يفصلُ بحرُ أشموم (أحدُ تفرعاتِ النيلِ في الدَّلْتا) بينَها وبينَ الفِرنجِ في الشِّمالِ. فأصدرَ أوامرَهُ بالرَّحيلِ. وحُمِلَ هو في سفينةٍ حتى بلغَ المنصورةَ في يوم ِالثَّلاثاء ِ٨ حَزِيرانَ، ونزلَ في القصرِ نفسِهِ الذي كانَ أبوه الملكُ الكاملُ محمدٌ ينزلُ فيه من قبلُ في حربِهِ ضدَّ حملةِ جان دي بريين.

واجتمعت بالمدينةِ جُموعٌ غفيرةٌ من أفرادِ الشعبِ والمتطوّعِينَ للجهادِ الذين سيُسجِّلونَ صفحةً مجيدةً في تاريخِ المنصورةِ، بل وفي تاريخِ الأمةِ العربيةِ والإسلاميةِ جمعاء. فإلى هؤلاء ِيرجعُ الفضلُ، كما سنرى، في خلقِ نوع ٍجديدٍ مِن الحربِ هو ما نسمِّيهِ اليومَ بحربِ المقاومةِ الشعبيةِ.

كذلك أخذَ الجندُ مِن فَوْرِهم في إقامةِ التحصِيناتِ حولَ المدينةِ، فأصلحُوا السورَ الذي كانَ يحيطُ بها من ناحيةِ نهرِ النيلِ، وستروه بالستائرِ (وهي حِيطانٌ من خَشَبٍ أو غيرِهِ تُبنى أمامَ السورِ، و يقفُ الجنودُ خلفَها للدفاعِ عن السورِ المُعَرَّضِ للهجومِ)، ونصبُوا آلاتِ القتالِ بحيثُ تكونُ في مُواجهةِ العدوِّ.

وقَدِمَتْ قِطَعُ الأسطولِ الاسلاميِّ من القاهرةِ وفيها من الفرسانِ والمشاةِ العددُ الوفير، وأَرسَتْ بإزاءِ السورِ لتكونَ بمواجهةِ الاسطولِ الصليبيِّ عند وصولِهِ. وكانَ مِن بينِها الشَّوانِي أو الغِربانُ وهي نوعٌ من السُّفُنِ الحربيةِ الكبيرةِ كانوا يُقيمونَ فيها أبراجاً للدفاعِ والهجومِ، والحرّاقاتُ وكانتْ تُستَخْدَمُ في حَمْلِ الأسلحةِ الناريةِ مثلِ مكاحلِ البارودِ (أي

المدافعِ) وقواريرِ النِّفْطِ، والطرائدُ التي تُستخدمُ في حملِ الخَيْلِ للأسطولِ، ثم المُسَطَّحاتُ وغيرُها من مُخْتَلِفِ أَنواعِ السفنِ.

الصليبيون في دِمياط (حرب عصابات)

دخلَ الصليبيّونَ إلى دِمياطَ كما رأَيْنا، فوجدُوها مدينةً خاليةً من حُماتِها، ولكنَّ بعضَ مخازِنِها كانتْ مُكتظَّةً بكلِّ ما تشتهيهِ الجيوشُ، فاستمرؤوا البقاءَ كما فعلوا في قُبْرُصَ، وأَخلدوا إلى الراحةِ والدَّعَةِ، وانغمسوا مرةً أخرى في التَّهَتُّكِ والفُجورِ، حتى غَدَتِ المدينةُ المُفْتَتَحَةُ ماخوراً كبيراً لفسقِهِم وفُجورِهِم. وظلُّوا على ذلك ستةَ أشهرٍ كاملةً، حتى نَفِدَتِ المُؤنُ، وشَحَّتِ الأَقواتُ.

وفي خلالِ ذلك كانَ السلطانُ قد أتمَّ استعداداتِهِ، ووصلتْ إليه النَّجَداتُ من أطرافِ

مَمْلكتِهِ، فراحَ يَشُنُّ على الصليبيّينَ حربَ إنهاكٍ واستنزافٍ. فأمرَ الأسطولَ المصريَّ بمناوشَةِ سفنِ العدوِّ وشنِّ الغاراتِ الفُجائيَّةِ عليها، كما أَمرَ المُتَطَوِّعَةَ والعُرْبانَ بالإغارةِ على أفرادِ العدوِّ وتَخَطُّفِهِم أينما كانوا. وزيادةً في تقوية الحوافزِ لدى جُنْدِهِ راحَ يمنَحُ كلَّ جُنديٍّ أو متطوِّعٍ قطعةً ذهبيةً عن كل رأسٍ يأتيهِ به من رؤوس الأَعداءِ.

كانَ من نتيجةِ ذلك أنْ شَنَّ المسلمونَ على الصليبيّين حربَ عصاباتٍ هي الأولى من نوعِها في التاريخِ العَسْكَرِيِّ. ففي مُنْتصفِ آبٍ من عامِ ١٢٤٩ هاجمتْ سَرِيَّةٌ من المسلمينَ مُعسكرَ الأعداءِ بدِمياطَ من ناحيةِ البَرِّ، وكان الملكُ لويسُ قد أمرَ رِجالَهُ بعدمِ مُغادرةِ المعسكرِ بغيرِ إذْنٍ منه. لكنَّ أحدَ كِبارِ الفِرنجِ ضربَ بأوامرِ لويسَ عَرْضَ

الحائطِ. فلبسَ دِرْعَهُ، وامتطى جَوادَهُ، وانطلقَ مَعَ بعضِ رجالِهِ نحو السريَّةِ المُغيرةِ. وكان هذا ما يريدُهُ المسلمونَ، فاشتبكوا مع رجالِهِ في معركةٍ خاطفةٍ كادوا يُبيدونَهُم فيها. وجُرِحَ هو نفسُهُ وكادَ يَقْضِي نَحْبَهُ لولا أَنْ أسرعَ إليه بعضُ رجالِهِ، وحَملوهُ إلى خَيمتِهِ وهو فاقدُ الوَعْيِ حيثُ ماتَ بعد ذلك متأَثِّراً بجراحِهِ.

وزادَ المسلمينَ جرأةً مارَأَوْهُ من خِذْلانِ الفِرنجِ وضَعْفِ نفوسِهِم، فلم يَعودوا يكتفونَ بغاراتِ الفرسانِ فقط، بل راحوا يُرسلونَ مُشاتَهم في غاراتٍ ليليةٍ صامتةٍ، فكان هؤلاءِ يتسلَّلونَ إلى المعسكرِ الفرنسيِّ ليلاً، و يُجْهِزونَ بخناجِرِهِم على كلِّ مَنْ تَصِلُ أيديهِم إليهِ، ثم يعودونَ في صمتٍ حاملين معَهم رؤوسَ ضحاياهُم.

أَزعجتْ هذه الغاراتُ الليليةُ مُعسكرَ الفِرنجِ إزعاجاً شديداً، فأصدرَ الملكُ لويسَ أوامرَهُ بإحكامِ المُراقبةِ، وبأنْ يقومَ الجندُ بحراسةِ المعسكرِ وهم مترجّلونَ، لأنه لاحظَ أَنَّ المسلمين كانوا يتسلّلون إلى داخلِ المعسكرِ مُتستّرين عن الأنظارِ بِجيادِ الصليبيِّن. وزيادةً في الحَيْطَةِ أمرَ بِحَفْرِ خنادقَ عميقةٍ حولَ المُعسكرِ، وعَهِدَ إلى رماةِ السِّهامِ بحراسةِ هذه الخنادقِ وجميعِ المَنافذِ المؤدِّيَةِ إلى داخلِ المعسكرِ ليَحُولوا دونَ وصولِ المسلمينَ إليهِ.

وعلى الرُّغمِ من كلِّ هذهِ الإحْتياطاتِ، فإنَّ حربَ العصابات هذه زادتْ شِدَّةً حتى أَقَضَّتْ مَضاجِعَ الفِرنجِ، واغْتيلَ حُرّاسهم واحداً إثْرَ الآخَرِ، وأسِرَ كثيرٌ مِن رجالِهِم، بل لقد بلغَ عددُ الأَسْرى منهم ثلاثَمِائةِ أسيرٍ خلالَ شهرٍ واحدٍ.

كانتْ حصيلةُ حربِ العصاباتِ هذه خسارةَ الفرنجِ لما يَقْرُبُ مِن ألفٍ وخَمْسِمِائةِ رجلٍ بين قتيلٍ وأسيرٍ، كما أسِرَتْ لهم سفينةٌ حربيةٌ كبيرةٌ مِن النوعِ المعروفِ بالمُسَطَّحِ مَعَ مَنْ كان بها من المُحاربِينَ.

ولم يَكتفِ السلطانُ بذلك، بل أَوْعَزَ إلى وُلاتِهِ في الشامِ بالهجومِ على المُدُنِ الساحليَّةِ التي كانت لا تزالُ بِحْوزَةِ الصليبيِّينَ لشغلِها عَن إمدادِ حَمْلَةِ لويسَ بالرِّجالِ والمُؤَنِ، فسار هؤلاءِ بقُواتِهِم. فحاصروا مدينةَ صَيْدا التي سقطتْ في أَيدِيهِم بعد قتالٍ ضارٍ بين الفَريقَينِ، ثم أخذوا بعد ذلك في توجيهِ الضَّرَباتِ الشديدةِ إلى باقي مُمْتلكات الصليبيينَ في الشامِ بُغْيَةَ إزعاجِهِم ومُضايَقتِهِم. وهكذا وقعَ الصليبيّونَ بين فَكَّي الكّماشةِ الرَّهيبةِ،

بين نارِ الشاميّينَ في الشِّمالِ، ونارِ المصريّينَ في الجُنوبِ.

وكأنّما شاءَتِ الاقدارُ أن تكونَ عَوْناً للمسلمينَ على الغُزاةِ، فأرسلتْ ريحاً زَعْزَعاً هبَّتْ على الوجهِ البحريِ في أيامٍ مُتَعاقبةٍ، فحطَّمَتْ ما ينوفُ على مِائتَينِ وأربعِينَ سفينةً مِن سفن العدوِّ الراسيةِ على الشاطِىء بالقُربِ من دِمياطَ.

الصليبيون يتجهون نحو المنصورة

كانَ الفرنسيّونَ في موقف بالغِ الحَرَجِ، فمؤنُهم شارفَتْ على النَّفادِ، واسطولُهُم مُنِيَ بخسائرَ فادحةٍ نتيجةَ العواصفِ الهُوْجِ، وجنودُهُم وفرسانُهُم يُقتَلون أو يُؤسَرون في كلِّ يومٍ وكلِّ ليلةٍ.

ورأى الملكُ لويسُ أن البقاءَ على هذهِ الحالِ مَعناه الهلاكُ المحتومُ. ومع ذلك بَقِيَ لا يفعلُ شيئاً،

لأنَّه لم يكنْ يملكُ أن يفعلَ شيئاً حقاً، إذ كيف يمكنُهُ أن يسيرَ إلى قِتالِ المسلمينَ بجيشٍ جائعٍ وأسطولٍ مُحطَّمٍ؟

ولكنَّ الإنقاذَ جاءهُ في الوقتِ المناسبِ، ففي أخْرَياتِ شَهْرِ تِشرينَ الأَوَّلِ من العامِ نفسِهِ وصلتِ السفنُ الشارِدَةُ التي جَنَحَتْ بها الرِّياحُ نحوَ شواطِىءِ الشامِ بعد الإبحارِ من قُبْرُصَ. وكانتْ هذه السفنُ تُشكِّلُ، كما قلنا، ثُلُثَيِ الأسطولِ الذي أبحرَ من ليمازولَ، وكانت مكتظَّةً بالرجالِ والسلاحِ والمؤنِ. كما وصلَ إلى دِمياطَ في الوقتِ نفسِهِ ألفونسُ كونت بُواتييه شقيقُ لويسَ التاسعِ قادماً من فِرنسة على رأسِ النَّجْدَةِ التي كان قد تخلَّفَ في فِرَنْسَة من أجلِ جَمْعِها. وهكذا توفَّر للملكِ لويسَ التاسعِ ما كان يحتاجُ إليه من أسطولٍ ومؤنٍ وعَتادٍ ورجالٍ لكي

يسيرَ إلى قِتالِ المسلمينَ.

وفي الحالِ جمعَ الملكُ الفرنسيُّ مجلسَ مشورتِهِ لتقريرِ خُطَّةِ المسيرِ: أَيتجهونَ نحو الإسكندريةِ، أم يسيرونَ قُدُماً نحوَ القاهرةِ؟

احتدمَ النِّقاشُ والخِلافُ بينَ أركانِ الحربِ إلى أَنْ قال بطرسُ كونت بريتاني، وهو مِن كبارِ النبلاء الذين اشتركُوا في الحملةِ:

ــ علينا أن نسيرَ إلى الإسكندرية أولاً للاستيلاءِ عليها وإيواءِ سفنِنَا في مينائِها الأَمينِ، ثم نَتَّجِهُ إلى القاهرةِ.

وأَيَّدَهُ في هذا الرأيِ مُعظمُ قُوّادِ الجيشِ لِعلمِهِم بأَنَّ الإسكندريةَ أصلحُ مِن دِمياطَ لتكونَ قاعدةَ انطلاقٍ نحوَ القاهرةِ، وذلك لقربِها من فِرنسة فيما يتعلّقُ بالإمدادِ، ولِصَلاحِيَةِ مينائِها لِرُسُوِّ السفنِ.

ولكنَّ رُوبرتَ كونتَ أرتوا شقيقَ لويسَ لم يُوافقْ على هذهِ الخُطَّةِ واستهجنَها قائلاً:

ــ إنّه لمن الحُمقِ الذهابُ إلى الإسكندريَّةِ، بل يجب أَنْ نَضَعَ أيديَنا على العاصمةِ أولاً، وعندئذٍ تتهاوى بقيَّةُ المدنِ من تلقاءِ أَنْفِسِها.. فمن أرادَ أن يقتُلَ الأَفعى فعليه أن يبدأَ برأسِها.

وأخذَ الملكُ برأيِ أخيهِ الأَحمقِ، وقرَّرَ المَسيرَ من دِمياطَ إلى القاهرةِ مُباشرةً، فوقعَ في الخطإِ الذي وقعَ فيهِ جان دي بريين قبلَهُ، وكان سبباً في هَلاكِ جيشِهِ العَظيمِ.

ففي العشرينَ مِن تشرينَ الثاني قَصَدَ لويسُ بجيشِهِ العَرَمْرَمِ من دِمياطَ بعدَ أنْ خلَّفَ فيها حاميَةً قويةً، كما تركَ زوجتَهُ في المدينةِ لأنَّها كانت حامِلاً وعلى وَشْكِ الوَضْعِ. وسارَ الأسطولُ في النيلِ مُحاذِياً

الجيشَ في تَقَدُّمِهِ نحوَ الجُنوبِ.

كانتِ المِنطقةُ التي اتَّخذوا طريقَهُم فيها جَزيرةً مُثلَّثةَ الشكلِ تُحيطُ بها المياهُ من كلِّ جانبٍ، ففي الشِّمالِ الغربيِّ يَجري فَرعُ دِمياطَ أحدُ فَرْعَيِ النيلِ العَظيمَينِ، وفي الجُنوبِ الشرقيِّ يَجري بحرُ أشمومَ وهو فَرْعٌ مُهِمٌّ مِن فُروعِ النيلِ، يتفرَّعُ شِماليَّ مدينةِ المنصورةِ الواقعةِ على فَرعِ دِمياطَ، ثم يأخذُ مجراه باتجاهِ الشِّمالِ الشرقيِّ ليصبَّ أخيراً في بُحَيْرةِ المنزلةِ وفي الشرقِ بحيرةُ المنزلةِ الواسعةُ.

أَضِفْ إلى ذلك أنَّ هذه الجزيرةَ ملآى بالعقباتِ والعراقيلِ، إذ تتخلَّلُها التُرَعُ والمجاري المائيَّةُ الكثيرةُ السريعةُ الجريانِ المتفرعةُ عن الفَرعِ الشرقيِّ للنيلِ، والتي تجعلُ المرورَ فيها صعباً خَطِراً، وهو الأمرُ الذي يجعلُ من زحفِ الجيشِ عمليةً شاقَّةً للغايةِ، ومحفوفةً

بالمخاطرِ الكثيرةِ، إذ بإمكانِ الجيشِ المدافعِ أن ينصِبَ ما يشاءُ من الأَفخاخِ للإيقاعِ بالجيشِ المُغيرِ.

في هذه المنطقةِ الخَطِرَةِ راحَ الفِرنجُ يتقدّمونَ ببُطْءٍ شديدٍ، فلم يَصِلوا إلى قريةِ فارِسْكورَ إلّا في اليومِ الثاني من شهرِ كانونَ الأولِ على الرُّغمِ مِن أَنَّهم لم يتعرَّضوا لأيَّةِ مقاومةٍ جِدِّيَّةٍ مِن جانبِ القواتِ الاسلاميةِ. وبعدَ ستةِ أيامٍ وصلوا إلى قريةِ شِرِمْساحَ. وبعد ستةِ أيامٍ أخرى بلغوا اليَرمونَ الواقعةَ على الجانبِ الشرقيِّ للنيلِ. وأخيراً، وفي يومِ الثّلاثاءِ الحادي والعِشرينَ من كانونَ الأَوّلِ وصلوا إلى الضّفةِ الشّماليةِ لبحر أشوم حيث كانتِ القواتُ الاسلاميةُ تنتظرُهُم على ضفتِهِ الجُنوبيةِ، فتوَقّفوا وأَلْقَوْا رِحالَهُم وأَثْقَالَهُم.

وكان أولَ ما اهتمّوا له هو توفيرُ الحِمايةِ لأنفسِهِم في مَركَزِهِم الجديدِ، وتحصينُ مُعسكرِهِم بالأسوارِ والخنادقِ والمتاريسِ. فلما تمَّ لهم ذلك نصبوا المنجنيقاتِ وقاذِفاتِ الأَحجار، واستعدّوا للمعركةِ المُقبلةِ.

أما المسلمونَ فكانوا قد وَزَّعوا قُواتِهِم توزيعاً جيِّداً، فوضَعُوا القسمَ الأكبرَ منها فوقَ تلٍّ يُعرَفُ باسمِ جَدِيلَةَ مشرفٍ على الشاطىءِ الجنوبيِّ لبحرِ أشْموم، ليكونَ في مواجهةِ جيشِ العدوِ، ويمنعَهُ من عبورِ النهرِ، وإلى الجُنوب الغربيِّ، وجُنوبيِّ مدينةِ المنصورةِ التي تبعدُ عن التلِ بمقدارِ ثلاثةِ كيلومتراتٍ وضعوا احتياطيَّهم وفِرْقةً قويةً من فُرسانِ المماليكِ لحمايةِ قصرِ السلطانِ القائمِ خارجَ المدينةِ. أما على الضفّةِ الغربيةِ لنهرِ النيلِ فقد تمركزَ أولادُ الملكِ

الناصرِ داودَ أميرِ الكَرَكِ على رأسِ فِرْقةٍ قويةٍ ليمنعوا الصليبيّينَ من أيِّ حركةِ الْتفافٍ قد يقومونَ بها بمساعدةِ اسطولِهم الماخرِ في النيلِ.

موت السلطان

في ليلةِ الاثنين نصفِ شَعْبانَ عام ٦٤٨هـ (٢٢ تشرين الثاني ١٢٤٩م) أي بعدَ يومَينِ من مسيرِ الصليبيّين من دِمياطَ ماتَ السلطانُ الملكُ الصالحُ بالمنصورةِ عن أربعٍ وأربعينَ سنةً من العُمْرِ.

كان موتُهُ ولا شكَّ مصيبةً كبيرةً تنزِلُ بالمسلمينَ وهم في مِحْنَتِهم القاسيةِ. وكان مِن المُحتَمَلِ جداً أن يؤدِّيَ إلى انهيارٍ تامٍّ للروحِ المعنويةِ في صفوفِهم، ثم إلى حدوثِ الكارثةِ المحقَّقَةِ. وقد أدركتْ زوجةُ السلطانِ المتوفىَّ الملكةُ شجرةُ الدرِّ ذلك إدراكاً

حسناً، فعزمتْ على إبقاءِ وفاةِ السلطانِ سرّاً لايعلمُ بهِ إلا فِئَةٌ قليلةٌ جداً من الخاصَّةِ. لهذا أرسلتْ في طلبِ قائدِ الجيشِ الأميرِ فخر الدينِ بنِ شيخِ الشيوخِ، والطواشي جمالِ الدينِ مُحْسِنٍ الصالحيِّ الذي كانَ أقربَ الناسِ إلى السلطانِ الراحلِ، وأخبرتْهُما بأمرِ الوفاةِ، وأوصتْهُما بالكِتْمانِ خَشْيَةَ أن يتسرَّبَ الخبرُ إلى عامَّةِ الشعبِ والأعداءِ. واتَّفقوا جميعاً على القيامِ بتدبيرِ المَمْلكةِ إلى أنْ يقدُمَ الملكُ المُعَظَّمُ تُوران شاه، و يتولَّى بنفسِهِ الأمورَ بعدَ والدِهِ.

وتنفيذاً لِلاِتِّفاقِ سارعَتِ الملكةُ شجرةُ الدرِّ فأمرتْ بوضعِ جُثَّةِ زوجِها في تابوتٍ، ثم بنقلِها سرّاً من المنصورةِ ودفنِها في قلعةِ الرَّوْضَةِ في القاهرةِ. وزيادةً في التكتُّمِ أَمَرَتِ الأطباءَ بالتردُّدِ على القصرِ كعادتِهِم في كلِّ يومٍ مُتظاهِرينَ بأنَّهم يعودونَ

السُّلطانَ في مرضِهِ. وكذلك أَبقَتْ على جميعِ مَراسيمِ القصرِ كما كانتْ تَجري في حياةِ زوجِها، فكانتِ المائدةُ يُمَدُّ سِماطُها في كلِّ يومٍ، و يَدخلُ الأمراءُ (القُوّادُ) فيأكلونَ و ينصرفونَ على حَسَبِ العادةِ الجاريةِ. وإذا سأل أحدُهُم عن السلطانِ لماذا لا يأكلُ مَعَهم، كانتْ شجرةُ الدرِّ تعتذرُ عن تغيُّبِهِ بأنّه مريضٌ لا يَقْوَى على الجُلوسِ إلى المائدةِ.

أمّا الأوامرُ السلطانيةُ الصادرةُ من القصرِ إلى نِيابةِ السلطنةِ في القاهرةِ، فكانتْ تُملِيها شجرةُ الدرِّ، ثم يقومُ بالتوقيعِ عليها باسمِ السلطانِ أحدُ خَدَمِهِ المدعوُّ بصَواب ٍالسُّهَيْلِيّ الذي كان يُجيدُ تقليدَ خطِّ سيِّدِهِ. وفي بعضِ الأَحْيانِ كانت شجرةُ الدرِّ نفسُها هي التي تقومُ بتقليدِ علامةِ (تَوْقيع) زوجِها لبراعَتِها هي أيضاً في ذلك، فكانَ لا يشُكُّ مَنْ يرى

العلامةَ (التوقيعَ) أنها خطُّ السلطانِ نفسِهِ.

ولِكَيْلا تَحدُثَ هَزَّةٌ حينَ وُصولِ ابنِ السلطانِ، فقد عزمَتْ على أَنْ تأخذَ له البَيْعَةَ من الجُنْدِ قبلَ مجيئهِ. فاستدعَتِ الأمراءَ (القوّادَ) الذين بالمعسكرِ، وهم لا يعلمونَ بموتِ السلطانِ، وقالتْ لهم:

ـ إن السلطانَ قد رسَمَ أمراً بأنْ تَحلِفوا له ولأبنِهِ المَلِكِ المعظَّمِ غِياثِ الدين بنِ توران شاه صاحبِ حِصْنِ كِيفا أن يكونَ سُلطاناً من بعدِهِ، وللأميرِ فخرِ الدينِ بالتَّقْدِمَةِ على العساكرِ، والقيامِ بالأتابكيّة (القيادة العامة للجيوش) وتدبيرِ المملكةِ.

فقالوا كلُّهم:
ـ سمعاً وطاعةً.

وهم يظنونَ أنَّ السلطانَ حيٌّ. وحَلَفوا، ثم انطلَقُوا فحلَّفوا سائرَ الأجنادِ والمماليكِ السُّلطانِيَّةِ.

وبعدَ ذلك استدعَتِ الملكةُ الفارسَ «أقطايَ»، وهو يومئذٍ من رؤوسِ المماليكِ، فأمرتْهُ بالذهابِ إلى حِصْنِ «كِيفا» على الضفَّةِ الغربيَّةِ لنهرِ دَجْلَةَ بالقُرْبِ من مدينةِ آمِدَ (ديارَ بَكْر)، فخرجَ هذا على رأسِ خمسينَ فارساً لإحضارِ المَلِكِ المعظَّمِ من ذلك الحِصْنِ.

تمَّ كلُّ هذا في سرعةٍ وهدوءٍ، وبغيرِ جَلَبَةٍ أو ضَوْضاءَ. ومضتِ الأمورُ تسيرُ سَيْرَهَا المُعتادَ كأنْ لَمْ يحدثْ شيءٌ على الإطلاقِ، وأثبتَتِ الملكةُ شجرةُ الدرِّ أنَّها المرأةُ القويَّةُ التي لا تَقِلُّ عن عُظَماءِ الرجالِ حِنْكَةً وحَزْماً ودِرايةً.

المرحلة الثانية

(استراتيجية دفاعية هجومية)

على الرُّغمِ من الخسائرِ التي لَحِقَتْ بالصليبيينَ حتى الآنَ، فإنهم ظلّوا يَملِكون ضِدَّ عدوِهِم تفوُّقاً عددياً هائلاً. فالخسائرُ التي مُنُوا بها في الأفرادِ لم تتجاوزِ الأَلفَينِ بينَ قتيلٍ وأسيرٍ، وقد عوَّضَتْها النجدةُ التي جاءَ بها شقيقُ الملكِ كونت بواتييه. كما أن فِرَنْجَ الساحلِ من الصليبيينَ السابقينَ زادوا من تفوُّقِ الجيشِ الفرنسي بما أَمدُّوهُ بهِ مِن فِرَقٍ قويةٍ مِن

لمشاةِ والفُرْسانِ حتى بلغ ما يزيدُ على التّسعينَ ألفاً.
ما جيشُ المسلمينَ فلم يَكُنْ يَزيدُ على عَشَرَةِ آلافٍ
صفُهُم من الفُرسانِ. وهذا هو الجيشُ النِّظاميُّ
المكوّنُ من المماليكِ السُّلطانيةِ ومماليكِ الأمَراءِ. فإذا
أضفْنا إليه النجدةَ المُرْسلةَ من أميرِ الكَرَكِ والمتطوِّعَةَ من
عامَّةِ المسلمينَ فإن غايةَ ما تصلُ إليه القواتُ
الإسلاميةُ هو ٢٥ ألفَ مُجاهدٍ.

على أساسِ هذا الواقعِ اعتمدَ فخرُ الدينِ بنُ
الشيخِ استراتيجيةً ذكيةً هدفُها تَحاشِي الاصْطدام
المباشرِ بالجيشِ المُعادِي إلى حينِ حِرمانِهِ من مِيزةِ
التفوُّقِ العدديِّ.

ويمكنُ توضيحُ استراتيجيتِهِ هذه بالخطوطِ العامَّةِ
التاليةِ:

١ ــ يجبُ تثبيتُ العدوِّ وراءَ بحرِ أشمومَ ومنعُهُ

مِن العبورِ بكلِّ الوسائلِ.

٢ ــ من أجلِ تحقيقِ ذلك يقفُ الجيشُ النظاميُّ في مُواجهةِ العدوِّ على الضفَّةِ الجنوبيةِ لبحرِ أشمومَ، على حين يَقفُ الأسطولُ الإسلاميُّ بإزاءِ المنصورةِ لمنعِ أسطولِ العدوِّ مِن التقدُّمِ للقيامِ بحركةِ الْتفافٍ خلفَ الخطوطِ الإسلاميةِ. وفي الوقتِ نفسِهِ يتمركزُ أَولادُ أميرِ الكَرَكِ بقوّاتِهم على الضفةِ الغربيةِ للنيلِ لمنعِ العدوِّ مِن النزولِ على البرِّ الغربيِّ.

٣ ــ تقومُ فِرقٌ سريعةٌ مِن فرسانِ المسلمينَ، وَعبْرَ مخاضاتٍ سَرَّيةٍ، بغاراتٍ مُفاجئةٍ على العدوِّ لانزالِ أكبرِ الخسائرِ في صُفوفِهِ.

٤ ــ تقومُ جماعاتُ البدوِ، وجماعاتُ المتطوِّعَةِ، بمناوشَةِ العدوِّ من الخلفِ والأَمامِ لِقتلِ أو أَسرِ أفرادِهِ.

٥ ــ حينَ يبلغُ العدوُّ درجةً معينةً مِن الضَّعْفِ تتجمعُ القواتُ الاسلاميةُ كلُّها لِلاِلتحامِ به وتَسديدِ الضَّرْبةِ القاضيةِ إليهِ.

بهذه الاستراتيجيةِ الذكيَّةِ راحَ الأميرُ فخرُ الدينِ يُديرُ الحربَ بكلِّ حِنْكَةٍ وبَراعةٍ.

غارات ومناوشات

في اليومِ الأَوَّلِ لنزولِ الفِرنجِ، وهو اليومُ الحادِي والعِشرونَ من كانونَ الأَوَّلِ، بعثَ الأميرُ فخرُ الدين جانباً من قُواتِهِ لِمُباغتةِ العدوِّ وهو مشغولٌ بأعمالِ تهيئةِ المُعَسْكَرِ. وقد تمكَّنَتْ هذه القوةُ من مفاجأةِ العدوِّ الذي غَرِقَ بعضُ رجالِهِ في النهرِ عند مُحاولتِهِم الفرارَ.

وبعد ذلك بأربعةِ أيّامٍ أمَرَ فخرُ الدينِ جماعةً من

جندِهِ بمعاودةِ الهجومِ على الفِرنجِ في برِّهِم، فاندفعَ هؤلاءِ صَوْبَ معسكرِ الأعداء واضعينَ سيوفَهُم في رقابِ كلِّ مَنْ يصلونَ إليهِ، ثم قَفَلُوا راجعينَ إلى قَواعِدِهِم دونَ أن يَخْسَروا من رِجالِهِم أحداً.

أما جماعاتُ المتطوِّعةِ والعُربانِ فقد أنزلَتْ بالعدوِّ خسائر فادحةً نتيجة غاراتِها المفاجئةِ وأعمالِ التسلُّلِ خِفْيَةً إلى المُعسكرِ. فكانتْ هذه الجماعاتُ تَتَصَيَّدُ كلَّ فِرَنْجِيٍّ يبتعدُ عن معسكرِهِ وتفتِكُ بهِ، فإذا شعرَ بِهِمُ العدوُّ أَلْقَوْا أَنفسَهُم في الماءِ وسَبَحُوا إلى أَنْ يَصِلوا إلى الضفَّةِ التي فيها المسلمونَ.

استمَّرتِ الحربُ على هذهِ الشاكلةِ مُدَّةَ شهرٍ ذاقَ خِلالَها الفِرنجُ الأَمَرَّيْنِ بسببِ الغاراتِ المفاجئةِ التي كانَ المسلمونَ يَشُنُّونَها عليهم متى شاؤوا وأَينما شاؤوا، ثم يعودونَ إلى قواعِدِهِم دونَ أن يتكبَّدُوا شيئاً من الخسائرِ.

إزاءَ هذهِ الهجماتِ المتكررةِ والضَرَباتِ المُتلاحقةِ أمرَ الملكُ لويسُ بحفرِ الخنادقِ حولَ معسكرِهِ لاستكمالِ حَلْقةِ التحصِيناتِ، فاصبحتْ مياهُ بحرِ أشمومَ وفَرْعِ دِمياطَ تُحيطُ بِهِ مِن ناحِيتَي الجُنوبِ والغَرْبِ، والخنادقُ تحيطُ به مِن ناحِيتَي الشِّمالِ والشَّرقِ. وخُيِّلَ إليه أنَّه أصبحَ في مأمنٍ مِن أعمالِ التسلُّلِ والغاراتِ المُفاجئةِ.

ولكنَّ أذهان الأَهالي تفتَّقَتْ عن كثيرٍ من الخُدَعِ والحِيَلِ التي كانوا يستدرِجُون بِها أَفرادَ العدوِّ إلى خارجِ مُعسكرِهِم لِلفتكِ بِهِم أو أَسْرِهِم، من ذلك أن أحدَ أفرادِ الشعبِ مِن المُتطوِّعةِ قَوَّرَ بِطِّيخةً خضراءَ، ووضعَها على رأسِهِ، وغَطَسَ في الماءِ حتى حاذَى الفِرنجَ، فظنَّه بعضُهم بِطِّيخةً طافِيَةً على الماءِ فنزلَ إلى الماءِ لأَخْذِها، فَخَطِفَهُ المُتَطَوِّعُ، وأتى به

أَسيراً إلى مُعسكرِ المسلمينَ.

وفي السادِسَ عَشَرَ مِن رمضانَ عادَ سِتةُ فرسانٍ من المسلمينَ كانوا في مُهِمةٍ استطلاعيةٍ، وأفادوا بأنَّ الفرنجَ في مَوْقفٍ حَرِجٍ، وعلى الأَثَرِ قرَّرَ فخرُ الدينِ القِيامَ بأولِ ضَرْبةٍ كبيرةٍ ضِدَّ المُعْسكرِ المُعادِي، وراحَ يَرسُمُ خُطَّةَ العُبورِ والهجومِ في سِرِّيَّةٍ كاملةٍ. ولكنَّ مُخابراتِ العدوِّ علمتْ بالأمْرِ ونقلتْهُ إلى الملكِ لويسَ.

فَرِحَ الملكُ بالخبرِ، ورأى فيما اعتزمَهُ فخرُ الدينِ الفُرْصَةَ التي انتظرَها طويلاً للالْتحامِ بالجيشِ الاسلاميِّ لضربِهِ والقضاء عليهِ، فها هوذا العدوُّ يأتي إليهِ بنفسِهِ، و يُوَفِّرُ عليه مَشَقَّةَ العبورِ إليهِ.

أسرعَ لويسُ إلى الاستعدادِ للقاء عدوِّهِ، فأمَر

بِمُضاعفةِ الاحْتياطاتِ، وقامَ بتوزيعِ المَهامِّ. فكانَ على أخيه روبرتَ كونتِ دارتّوا حراسَةُ مُعَدّاتِ القِتالِ، وعلى شقيقِهِ الآخرِ كونت دانجو حراسةُ المعسكرِ من الناحيةِ الجُنوبيةِ، أما شقيقُهُ الثالثُ ألفونسُ كونت دي واتييه ومعَهُ نبلاء شَمْبانيةَ، فكان عليهم الدِّفاعُ عن المُعسكرِ من الشِّمالِ من ناحيةِ دِمياطَ.

وفي أولِ أيام عيدِ الفِطْرِ (٢٠ كانون الثاني ١٢٥٠) أصدرَ الأميرُ فخرُ الدينِ الأوامرَ إلى قواتِهِ بالعبورِ، فعبرتْ وتمركزتْ في الزاويةِ المحصورةِ بينَ فرعِ دِمياطَ وبحرِ أشمومَ، وعلى الأثرِ نَشِبَ القِتالُ.

اندفعَ المماليكُ في هجومٍ صاعقٍ صَوْبَ شارل كونت دانجو وقواتِهِ. وفي حركةٍ بارعةٍ التفّوا حولَهُم وأنزلُوا بهم ضرباتٍ ساحقةً، حتى إنَّ الكثيرينَ

مِنهم غَرِقوا في النهرِ وهم يحاوِلونَ الفِرارَ، وأسرعَ أحدُ قُوّادِ الفِرنجِ لمعاونةِ شارل، ولكنَّ أحدَ فرسانِ المسلمينَ ضربَهُ فأوقَعَهُ عن فرسِهِ وكُسِرَتْ إحدى ساقَيْهِ، فحملَهُ أثنانِ من رجالِهِ وفرَّا بِهِ إلى داخلِ المعسكرِ.

ومِن الشِّمالِ أسرعتْ قواتُ ألفونس كونتدي بواتييه وفرسانُ شمبانية تريدُ الإطباقَ على المماليكِ وحَصْرَهُم بينَ النَّهْرَيْنِ، ولكنَّ هؤلاء اندفعوا نحوَها في جُرْأةٍ وسرعةٍ غريبتَيْنِ، واخْترقُوا صفوفَها وأنزلوا بِها ضربةً ساحِقَةً ماحِقَةً.

واكْتَفَتِ العساكرُ الاسلاميةُ بهذهِ النتيجةِ الرائعةِ، وانسحبتْ إلى قَواعِدِها دونَ أن تَلْحَقَ بها أيَّةُ خسارةٍ تُذكرُ، وبعد أنْ فتكتْ بعددٍ كبيرٍ من فرسانِ الفِرنجِ، وأسرتْ كثيراً من نُبلائهِم، واقْتِيدَ

الأسْرَى إلى القاهرةِ في تَظاهرةٍ حَماسيَّةٍ كبيرةٍ، فكانَ ذلك كلُّه أجملَ هديَّةٍ تُقَدَّمُ للمسلمينَ في عِيدِ فِطْرِهِم.

معركة المدفعية

طبيعيٌ أن الحربَ في هذه المرحلةِ لم تقتصرْ على الغاراتِ التي ذكرْنا طرَفاً منها في الفِقْرَةِ السابقةِ. كما أنَّ الصليبيينَ لم يكونوا مكتوفي الأيْدي ينتظرونَ أن يَضْرِبَهُم عدوُّهُم متى أرادَ، بل إنهم سارعوا منذُ أن أقاموا معسكرَهُم إلى القيامِ بالأعمالِ العسكريةِ النَشِطَةِ.

وإذ كانَ بحرُ أشمومَ يفصلُ بينَهُم وبينَ المسلمينَ، لم يكنْ أمامَهُم مجالٌ لأيِّ نشاطٍ عسكريٍ سوى رَمْيِ المعسكرِ المُعادي بالحِجارةِ. وهكذا

نَصَبوا مَجانِقَهُم، وراحوا يُلْقونَ الصخورَ على رؤوسِ المسلمينَ عَبْرَ النَّهرِ لعلَّهم يُزحزحونَهم عن مواقِفِهم. ولكنَّ المسلمينَ أجابوا ضَرْبَةً بضربةٍ، وحَجَراً بحجرٍ، وحَمِيَ وَطِيسُ التراشُقِ بينَهُما ليلَ نهارَ حتى فَدَحَتِ الخَسارةُ في الأرواحِ مِن كِلا الجانبَينِ، إلا أنَّ الخسارةَ في الجانبِ الصليبيِّ كانت أَفْدَحَ لدِقَّةِ المسلمينَ في التسدِيدِ، وبُعْدِ مَدى قاذِفاتِهِم ومَجانِيقِهِم، وهكذا أدركَ الصليبيونَ أن العدوَّ يُضاهِيهم بل يفوقُهُم في هذا النوعِ مِن فنِّ الحربِ، فقرَّ قرارُهُم على مُلاقاتِهِم وجهاً لِوجهٍ، والاشْتباكِ معهُم في معركةٍ ظنُّوا أنَّ باستطاعَتِهِم كَسْبَها بحذْقِهِم ومَهارتِهِم. ولذا بدؤوا تَشييدَ جِسْرٍ يَعبرونَ عليهِ النهرَ، ولم يُدرِكُوا عَبَثَ هذهِ المحاولةِ إلاَّ بعدَ أن أمْطَرَهُم المسلمونَ بوابلٍ مِن القذائفِ من ستَّ عَشْرَةَ

آلةً قاذفةً كانوا قد نَصَبوها على تلٍّ جَدِيلَةَ لهذا الغَرَضِ، فحطَّموا جَسْرَهُم وقَتَلُوا رِجالَهُم.

معركة هندسية

أصرَّ الملكُ لويسُ على إعادةِ المُحاولةِ. ولكي يُوَفِّرَ الحِمايةَ لِجُندِهِ الذين يَعملونَ في تَشييدِ الجسرِ أمرَ ببناء ثَمانِيْ عَشْرَةَ قاذفةً للأحجارِ، ووضَعَها على الضِفَّةِ المُقابلةِ للعدوِّ، ثمَّ أمَرَ بإقامةِ جِسْرٍ مُتنقِّلٍ مرتفعٍ يَعلُوه بُرجانِ من الخشبِ يَقِفُ عَلَيْهما رُماةُ السِّهامِ المَهرةُ وحَمَلَةُ القِسِيِّ، ومضى العملُ في تَشييدِ الجِسْرِ الكَبيرِ تحتَ حِمايةِ قَاذِفاتِ الأحْجارِ ورُماةِ السِّهامِ. وتركَهُم المسلمونَ يفعلونَ ذلك وكأنَّ الأمْرَ لا يَعنيهِم. ولكنْ ما إنْ شارَفَ الجِسْرُ على الانْتِهاء حتى قامَ المسلمونَ بِحَفْرِ خنادقَ واسعةٍ

وعميقةٍ في ضفَّةِ النهرِ التي هي في جانِبِهم، فانْدفعتِ المياهُ المحصورةُ وراء الجِسْرِ نحو هذه الخنادق ِفي سُرعةٍ شديدةٍ، ونشأ عن ذلك تيارٌ قويٌّ أتْلَفَ شاطِئَي النَّهْرِ، فانهارَ الجسرُ بِرُمَّتِهِ، وهكذا أفْسَدَ المسلمونَ على الصليبيينَ في يومٍ واحدٍ عملاً أنْفَقوا فيه ثلاثةَ أسابيعَ، وبرهنوا مرةً أخرى أنَّهم أبْرَعُ من عدوِهم في فنِ الهَنْدَسَةِ.

سلاح جديد في المعركة

أصرَّ الملكُ لويسُ على تكرارِ المحاولةِ ثالثةً، وعلى أثَرِ ذلك ظهرَ في مَيْدانِ القِتالِ سلاحٌ أشَدُّ وأفْتَكُ مِن كلِّ آلاتِ الحربِ حِينذاك، فقد فُوجِىء الفِرنجُ بشُعُلاتٍ رَهيبةٍ من اللَّهَبِ تَنْصَبُّ على رؤوسِهِم كأنّها تدفَّقَتْ من أجوازِ الفَضاء. تلك هيَ النارُ

الإغريقيةُ.. مَزيجُ الرُّعْبِ والمَوْتِ.. والسرُّ الرَّهيبُ الذي أنقذَ الإمبراطوريةَ البيزنطيةَ من سُقوطِها بأيدي المسلمينَ، والذي ظلَّ مُغْلَقاً كالطِّلّسْمِ أمامَ الشعوبِ الأخرى أربعةَ قرونٍ حتى وقعَ المسلمونَ ـــ قُبَيْلَ هذه الحملةِ الصليبية ـــ على مَكنونِهِ فعرفُوهُ.

وقِوامُ هذا السلاحِ مزيجٌ مِن النِّفْطِ والزَّيْتِ والكِبْريتِ مُجمَّدٌ بنوعٍ من الصَّمْغِ القابلِ لِلاشْتِعالِ، وكانَ يُعَبَّأُ في أنابيبَ من النُّحاسِ، ثُمَّ يُؤخذُ كلُّ أنبوبٍ فَيُوقَدُ مزيجُهُ الناريُّ من فُوَّهَةٍ في أَحَدِ طـرَفَيْنِ، ثم يُوضَعُ في القَوْسِ كما لو كانَ سَهْما، ثم يرُمىَ على الهَدَفِ المطلوبِ، وفي بعضِ الأحيانِ، ومِنْ أجْلِ تكثيفِ الرَّمْيِ، كانتْ تُوضعُ تلك الأنابيبُ بكمّيّاتٍ كبيرةٍ في أسْطُوانةٍ، ثم تُقْذَفُ بِمَدافعِ المنجنيقِ. وحينَ تَسقطُ على الهدفِ المُعادِي

تَنْفَجِرُ بقوةِ الاصْطِدامِ، فَيَنْدَلِعُ منها لَهيبٌ لا يُمكِنُ إنساناً أنْ يُخْمِدَهُ، وتَنْتَشِرُ ألْسِنَةُ النارِ في كلِ جانبٍ فتجعلُ ما حَوْلَها أتُّوناً مُتَلَظِّـياً:

وَلْنَسْتَمِعَ الآنَ للسيّد «جوانفيلَ» أحَدِ قادةِ الحملةِ وهو يصفُ في مُذكّراتِهِ ما لَقِيَهُ الصليبيونَ من وَيْلاتِ هذا السلاحِ الرهيبِ إذ يقولُ:

ــ «في غَسَقِ الليلِ جاء المسلمونَ بآلةٍ عجيبةٍ، ووضعوها تِجاهَ الأبراجِ التي كُنّا ساهرينَ على حراسَتِها أنا والسِيْر وَالْتِركُوريل، ثم قذفونا منها بشيء مَلأ قُلوبَنا بالدهشةِ والرُّعْب.. نارٌ كأنما هي الدّنانُ المُشْتَعِلَةُ، وذُيولُها من خَلْفِها مثلُ الحِرابِ الطويلةِ، ودَوِيُّها يُشبِهُ الرَّعْدَ، وكأنَّها جارِحٌ يَشُقُّ الفَضاء، ولها نورٌ ساطعٌ جداً من جَرّاء عِظَـمِ انتشارِ اللَّهَبِ الذي يُحْدِثُ الضوء، حتى إنّك تَرى كلَّ ما

في المعسكرِ كما لو كانَ في وَضَحِ النهارِ، ولقد رَمى المسلمونَ علينا هذه النارَ في تلك الليلةِ ثلاثَ مراتٍ من الآلاتِ الكبيرةِ، وأربعَ مراتٍ من القِسِيِّ العَريضةِ.

وفي اليومِ التالي قَذَفونا بها مرةً أخرى، فكأنَّما فتحوا بابَ جَهَنَّمَ فجأةً في وُجوهِنا، واندلعتِ النارُ في البُرْجَينِ الخشبيَّيْنِ، وامتدَّتْ أَلْسِنَتُها تلتَهِمُ ما تَصِلُ إليه».

إزاء هذا كلِّه صمَّمَ الملكُ على بناء مجموعةٍ مِنَ الأبراجِ بَدَلَ البُرْجَينِ اللَّذَينِ احْتَرَقا، ولمّا لم يَجِدْ خشباً في تلك المِنطقةِ، اضطُرَّ إلى جَلْبِهِ من السفنِ الراسيةِ في دِمياطَ، ثم شَرَعَ عمالُهُ يَبْنونَ الأبراجَ الجديدةَ تحتَ وابلٍ من قذائفِ الأحجارِ، ولكنْ ما كادَتِ الأبراجُ تنتهِي حتى سلَّطَ المسلمونَ عليها

نارَهُم الجهنَّمِيَّةَ، فاشتعلَ فيها اللهبُ، ثم انهارتْ كَوْمَةً من الرَّمادِ تَنْعى جهودَ بُناتِها الضائعةَ.

وحينئذٍ لم يبقَ للصليبيينَ حِيلةٌ ما، فَفَتَر نشاطُهُم، ودبَّ فِيهم اليأسُ من إمكانِ العُبورِ، وعَلِموا أنَّهم أخفقوا أيَّما إخفاقٍ، فاستدعى الملكُ هيئةَ أركانِ حربِهِ، وراحوا يقلِّبونَ الأمْرَ على وُجوهِهِ، ويتشاورونَ فيما ينبغي عملُهُ في هذا السبيلِ المُظْلِمِ.

المرحلة الثالثة
(معارك التحامية)

تميَّزتْ هذه المرحلةُ بالمعاركِ الالْتحاميةِ العنيفةِ لطويلةِ بَين الجيشَينِ المتحاربَينِ، وقد بدأتْ بعدَ هرَينِ مِن بدايةِ المرحلةِ السابقَةِ، وكان فخرُ الدينِ دَّرُ لها في استراتيجيتِهِ مَوْعِداً متأخِّراً، ولكنَّ الفرنج عَرَفوا ا المَوْعِدَ بمساعدةِ خيانةِ أحَدِ الأقباطِ، وعلى الرُّغْمِ ن أنَّهم همُ الذين افْتَتَحوها وأصابوا في أوَّلِها بعضَ توفيقٍ، فإنَّ نهايَتَها كانتْ وَبالاً عليهم، وكارثةً مِّرَةً نزلتْ بِهِم.

ولنبدأ الحكايةَ مِن أوَّلِها:

معركة المنصورة الأولىٰ

بينَما كانَ الملكُ لويسُ يتداوَلُ الأمْرَ معَ هَيْئةِ أركانِ حربِهِ كما ذكرْنا في الفصلِ السابقِ، إذ دخلَ عليهم السيد همبرت دي بوجو، وأخبرَهُم أنَ قبْطياً عرضَ عليه في مُقابلِ ٥٠٠ بيزانت ذهبية أن يَدُلَّهم على مَخاضةٍ مأمونةٍ في بحرِ أشْمومَ، ماؤها ضحلٌ، وعبورُهَا سَهْلٌ، ولكنَّ هذا القبطيَّ يَأبى إرشادَهُم قبلَ أن يأخذَ المبلغَ المطلوبَ، ولم يكنْ أمامَهم إلاّ أن يَقبلوا بهذا الشَّرطِ، فالواقعُ أنَّ الفِرنجَ كانوا قد وقعوا في وَرْطَةٍ حقيقيةٍ، فهم إذا بَقُوا في أماكِنِهِم فمصيرُهُمُ الهلاكُ المحقَّقُ بهذهِ النارِ الجهنميةِ التي يصْلِيهم بها العدوُّ في كلِّ يومٍ، وإذا تراجَعوا إلى دِمياطَ لَحِقَهُم الخزْيُ والعارُ أبَدَ الدهرِ، فكانتْ هذهِ المخاضةُ المَخْرَجَ لهم من وَرْطَتِهم، والخلاصَ

لَهم من كلِّ متاعِبِهِم.

دفعوا إذن المبلغَ المطلوبَ، وأرسلُوا مع القِبْطيِّ مَنْ رأى المخاضةَ واستوثَقَ مِن صَلاحِيَتِها للعُبورِ.

وفي يومِ الأثنينِ ٧ شباط عامَ ١٢٥٠م عقدَ المَلِكُ مَجلساً ثانياً من الأمراء والقُوّادِ اتفقَ فيه على خُطَّةِ المعركةِ القادمةِ، وكانتِ الخطةُ تتألَّفُ ممّا يَلي:

١ ــ تبدأ العبورَ في فجرِ الغدِ طليعةٌ مؤلفةٌ مِن فرقةِ شقيقِ الملكِ روبرت كونت دارتوا، وفرقةِ الفرسانِ الداويَّةِ بقيادةِ رئيسِها وِلْيَم دي سناك، والفِرقةُ الانكيزيةُ بقيادةِ وِلْيَم طويلِ السَّيْفِ، وفرقةُ الخيّالةِ الملكيةِ من حَمَلَةِ القِسِيِّ، ومُهمَّةُ هذهِ الطليعةِ هي مباغتَةُ المسلمينَ، والاسْتِيلاء على مُعَسكرِهِم ثم احتلالُ تَلِّ جَدِيلةَ الذي أقاموا فوقَهُ منجنيقاتِهِم، ثم

التوقُّفُ عَن أيِّ نشاطٍ آخرَ بانتظارِ وصولِ المَوْجةِ الثانيةِ.

٢ ــ تعبرُ الموجةُ الثانيةُ بعدَ الطليعةِ بمدةٍ يسيرةٍ، وتتألَّفُ قواتُها مِن فرسانِ شَمبانيةَ يقودُهُم الأخُ الثاني للملكِ شارل كونت دانجو، وتقتصِرُ مهمةُ هذهِ الموجةِ على توفيرِ الحمايةِ لِعمليةِ عُبورِ الموجةِ الثالثةِ في حالِ قِيامِ العدوِّ بهجومٍ مُعاكسٍ، ثم اللَّحاقُ بالطليعةِ لدعمِها في مُهمَّتِها.

٣ ــ وأخيراً يقومُ الملكُ وأخوه الثالث ألفونس كونت بواتييه بالعُبورِ على رأسِ الموجةِ الثالثةِ المؤلَّفةِ من فرسانِ الملكِ، ثم يَلْحَقانِ مَنْ سَبَقوهُم.

٤ ــ تجتمعُ الموجاتُ الثلاثُ على الضفةِ الجنوبيةِ للنهرِ لحمايةِ عمليةِ بناء الجِسْرِ الذي ستعبرُ

عليه فِرَقُ المُشاةِ والرُّماةِ التي تنتظرُ على الضفَّةِ الشماليةِ بقيادةِ دوق بُرْغَنْدِية.

٥ ــ بعد أن يَجتمعَ الجيشُ بكلِّ قواتِهِ على الضفةِ الجنوبيةِ يسيرُ قُدُماً إلى المنصورةِ لاحْتلالِها.

كانتِ الخُطـَّةُ مُحْكَمَةً متصلةَ الأطرافِ، وكانَ مُقَدَّراً لها أن تُصيبَ نجاحاً باهراً، لولا ما أبدى المسلمونَ من ثباتِ جَنانٍ، وشجاعةٍ فائقةٍ، وحسنِ استغلالٍ لأخطاء العدوِّ.

في ليلةِ الثَّلاثاء ٨ شباط تحركتِ القُواتُ الصليبيةُ نحوَ المخاضةِ التي كانتْ تبعُدُ عنِ المعسكرِ عِدَّةَ كيلو مترات إلى الشمالِ الشرقيِّ: وعند ظهورِ أوّلِ خَيْطٍ من خُيوطِ الفجرِ بدأتْ عمليةُ العبورِ.

سارتِ الأمورُ في البدايةِ بشكلٍ طبيعيٍ كما كانَ

مرسوماً لَها، وتقدَّمَتِ الطليعةُ بحذاء الضفةِ الجنُوبيةِ للنهرِ صَوْبَ مُعَسكرِ المسلمينَ الذين كانوا في غَفْلَةٍ عمّا يَجري. وما كادَتْ تُصبحُ على مَقْرَبَةٍ منه حتى شَنَّتْ عليهِ هجوماً صاعقاً قتلتْ فيهِ الحُرَّاسَ وشتتتِ الجنودَ الذين استبدَّ بهم الذُّعرُ لِهَوْلِ المُفاجأةِ.

كان قائدَ الجيشِ الأميرُ فخرُ الدينِ في حمّامِهِ يغتسِلُ حينما بلغَهُ خبرُ هذا الهجُومِ المُباغِتِ، فخرجَ مُسرعاً بعد أنِ ارتدى ثيابَهُ، وامتطى صَهْوَةَ جوادِهِ دونَ أن يلبسَ دِرْعَهُ، وانطلقَ وخلفَهُ عددٌ مِن المماليكِ والجُنْدِ لِصَدِّ المُغيرينَ ومُقاوَمَتِهِم، ولكنَّ الأوانَ كانَ قد فاتَ. ولم يكنْ بإمكانِ شِرْذِمَةٍ من الرجالِ مهما كانوا شُجعاناً أن تقفَ في وجهِ أربعِ فِرَقٍ قَوِيَّةٍ من الفرسانِ، فلم تكنْ إلاَّ دقائقُ حتى أحاطَ الصليبيونَ بالقائدِ البطلِ، وراحوا ينهالونَ عليه

برماحِهِم طَعْناً وبسيوفِهم ضَرْباً حتى خَرَّ صَريعاً وسيفُهُ لا يزالُ في يدِهِ.

كانتِ المُباغتةُ تامَّةً. وقد حقَّقَ الهجومُ غَرَضَهُ على أكملِ وَجْهٍ. ولم يبقَ إلاّ أن تُكْمِلَ الطليعةُ مُهِمَّتَها، وهي أن تحتفظَ بتَلِّ جَدِيلةَ الذي احتلَّتْهُ، وتنتظرَ وصولَ الملكِ ومعه القوةُ الرئيسيةُ، ولكنَّ الكونتَ دارتوا الذي انتشى بخمرةِ النصرِ بدا لَهُ رأيٌ آخَرُ، لقد كانَ يُريدُ أن يحتكِرَ لنفسِهِ مَجْدَ هذا اليومِ كلّه، فقرَّرَ أن يهاجِمَ مدينةَ المنصورةِ بقُوّاتِ الطليعةِ وَحْدَها. وعلى الرُّغمِ من معارضـهِ بقيَّةِ القوادِ لهذهِ الفكرةِ أصرَّ بشدةٍ على تنفيذِهَا.

بعدَ مُدةٍ يسيرةٍ قضاها كونت دارتوا في إعادةِ تنظيمِ قواتِهِ، أمرَ بالمسيرِ نحوَ المدينةِ التي لم يكنْ يحرُسُها أحَدٌ. وحينَ دَخَلوها لم يَجدُوا فيها غيرَ

الأهالي الذين فَرّوا إلى منازِلِهِم مَذْعورينَ. فمَضَوْا في شَوارِعِها لا يعترِضُ طريقَهُم أَحَدٌ حتى نَفَذُوا من الجانبِ الآخرِ، واتَّخذُوا طريقَهُم نحوَ قصرِ السُّلطانِ يريدونَ احتلالَهُ.

وعندئذٍ وَقَعَتِ المُفاجأةُ التي لم تَخْطُرْ للكونت المغرورِ ببالٍ.

كانَ خارجَ أسوارِ المدينةِ فِرْقَةٌ قَوِيَّةٌ من فُرسانِ المماليكِ البحريَّةِ وُضِعَتْ هناكَ لحمايةِ قصرِ السُّلطانِ وأسوارِ المدينةِ من الجهةِ الجنُوبيةِ، وكانَ على رأسِ هذهِ الفرقةِ قائدٌ سيكونُ لَهُ منذُ الآنَ دورٌ مُتنامِي الأهميةِ في حياةِ مِصرَ السياسيةِ. هذا القائدُ هو بيبَرْسُ البُنْدُقْدارِيُّ الذي غدا بعدَ عَشْرِ سَنَواتٍ سُلطاناً على مِصْرَ، ودامَ حُكْمُهُ لها مدةَ سَبْعَةَ عَشَرَ عاماً.

ما كادَ رُكْنُ الدينِ بِيبَرْسُ يُشاهدُ آخِرَ جنودِ الطليعةِ الصَّليبيةِ يَخْرجُ إلى ظاهرِ المدينةِ حتى شَنَّ على فِرَقِ الطليعةِ الأربعِ هُجوماً بارعاً مروِّعاً، وراحَ فُرْسانُهُ وقد أحاطوا بالطليعةِ من ثلاثَةِ جوانبَ يُمطرونَ العدوَّ بوابلٍ من سِهامِهِم النافذةِ، ثم اشتبكُوا معَهُ بالسيوفِ والرِّماحِ والدبابيسِ وكلِّ أنواعِ الأسلحةِ الفرديَّةِ، حتى كادوا يُفْنونَهُم عن بَكْرَةِ أبيهِم.

دامتْ هذهِ المعركةُ الطاحنةُ ساعةً كاملةً كانتِ القواتُ الإسلامِيَّةُ التي بَعْثَرَها هجومُ الطليعةِ الصليبيةِ المباغتُ، كانَتْ قد استعادتْ أثناءهَا رَباطَةَ جَأشِها، وأعادَتْ تنظيمَ صُفوفِها، ووقفتْ تَنتظرُ المَوْجَةَ الثانيةَ لِلاشتباكِ مَعَها. كما كانَ أهالي المدينةِ قد ثابَ رُشْدُهم إليهم، واستعدُّوا

لاسْتقبالِ الطليعةِ الصليبيَّةِ بما تستحقُّهُ عندَ ارتدادِها منهزمةً أمامَ ضَرَباتِ المماليكِ الماحقةِ.

وصحَّ ما توقَّعَهُ أهالي المدينةِ، فلم يَمْضِ وقتٌ طويلٌ حتى ظَهرتْ فلولُ الطليعةِ الصليبيةِ وهي تتَراكضُ مَذْعورَةً في شوارعِ المدينةِ بخُيُولِها البطيئةِ الضَّخْمةِ، وخُوَذِها ودُروعِها الثقيلةِ، ومِنْ ورائها فرسانُ المماليكِ يطاردونَها و يتعقَّبُونَها في كلِّ شارعٍ ودربٍ.

وعندئذٍ وقعتِ المفاجأةُ الثانيةُ التي لم تخطُرْ ببالِ الكونت المُنتصرِ!

كانَ الأهالي قد سَدُّوا الشوارعَ بالمتاريسِ والخَنادقِ والموانعِ الأخْرى، ووَقَفوا في النوافذِ والشُّرُفاتِ ينتظرونَ الأعداء المنهزِمينَ، فلما وصلَ هؤلاء راحوا يُلْقونَ فوقَ رؤوسِهِم بكلِّ ما أعدُّوه لهم

من حِجارةٍ وتُرابٍ ونِفْطٍ مُشْتَعِلٍ. وهكذا وقعَ الصليبيونَ بينَ نارَينِ، نارِ سُيوفِ المماليكِ من خَلْفِهِم، ونارِ قَذائفِ الأهالي من فَوْقِ رُؤوسِهِم، فهلكوا إلاَّ قليلاً مِنهم تمكَّنوا مِن الفِرارِ ليَنْقُلوا إلى المَلِكِ التعيسِ خبرَ الكارثةِ التي حلَّتْ بِهِم.

هلكَ في هذهِ الموقعةِ كونت دارتوا شقيقُ الملكِ لويسَ وثلاثُمِائةٍ من فرسانِهِ، كما هَلَكَ ولْيَم طويلُ السيفِ وغالبيَّةُ رجالِهِ، وخَسِرَتْ فرقةُ الفرسانِ الداويّةِ حواليْ ثلاثِمِائةٍ من أشْرَسِ مُحاربيها وأشدِّهِم تعصُّباً على الإسلامِ، وخَرَجَ رئيسُها مِن المعركةِ بعينٍ واحدةٍ. وعلى الجُمْلَةِ فقد بلغتْ خسائر الصليبيينَ ١٤٠٠ من خِيْرَةِ فُرسانِهِم وأكابرِ نُبَلائِهِم.

ولم تَقِفْ مصائبُ المغيرينَ عندَ هذا الحدِّ، فقد

كانتْ تنتظرُهُم كارثة ثانيةٌ في شِماليِّ المدينةِ، إذ ما كادَ كونتدانجو يَصِلُ إلى المَيْدانِ على رأسِ المَوْجةِ الثانيةِ المؤلفةِ من فرسانِ شامبانيه، حتى انقضَّ عليهِ الجيشُ الاسلاميُّ الذي استعادَ نِظامَهُ بعدَ ذَهابِ الطليعةِ الصليبيةِ لتَلْقَى مصيرَها المشؤومَ في شوارعِ المدينةِ، وما هي الاساعة أو بعضُ ساعةٍ حتى حلَّ بهؤلاء من الدمارِ والهلاكِ مثلُ ما حلَّ بإخوانِهِم الذين سَبقوهُم، فولوا الأدبار في كلِّ جهةٍ يطلبونَ النجاةَ، ومِنْهم من ألقى بنفسِهِ في النهرِ فَغَرِقَ، فصحَّ فيهم قولُ القائلِ: «كالمستجيرِ مِن الرَّمْضاء بالنارِ».

بعد انقشاعِ غُبارِ هاتَينِ المعركَتَينِ تولَّى القيادةَ العامَّةَ للجيشِ الإسلامي ركنُ الدينِ بِيبَرسُ قائدُ المماليكِ البحريةِ وبطلُ الهجومِ الصاعقِ على طليعةِ الصليبيينَ. وعلى الأثَرِ جَمَعَ قواتِهِ ونظَّمَها، ووقفَ

ينتظِرُ وصولَ الملكِ لويسَ.

ووصلَ الملكُ أخيراً وهو لا يعلمُ بما مُنِيَتْ بِهِ الطليعةُ مِن هزيمةٍ مُنْكرةٍ، ولا بمقتلِ شقيقِهِ روبرتَ، ولا بما حلَّ بفرقةِ أخيهِ الثاني كونتِ دانجو، وعلى الرُّغْمِ من استغرابِهِ لِعَدَمِ وجودِ هذَيْنِ الشقيقَيْنِ مع قُوّاتِهِما في المكانِ المحدَّدِ لهما في الخُطَّةِ، فإنَّه تمركزَ بقواتِهِ على تَلٍ مرتفعٍ قريبٍ من النهرِ لحمايةِ الجسْرِ الذي كانَ من المفروضِ أن يَجري بناؤهُ في تلكَ المِنْطقةِ لعبورِ فِرَقِ المُشاةِ والرُّماةِ. ولكنَّ ركنَ الدينِ بِيبرسَ لم يُمْهِلْهُ، فسُرعانَ ما أمَرَ بِشَنِّ الهجومِ عليه قبلَ أن يستكملَ تمركُزَهُ. وما هي إلا دقائقُ حتى الْتَحَمَ الجيشانِ في معركةٍ هائلةٍ يَشِيبُ مِن هَوْلِها الوِلْدانُ. لم يكنِ القِتالُ هذهِ المرَّةَ بقوسٍ أو برمحٍ، ولا بقذيفةٍ من مِدفعٍ أو منجنيقٍ، بل كانت

المعركةُ صورة ً مُرَوِّعَةً لملحمةٍ هائلةٍ اشْتبكتْ فيها الأجسادُ البشريةُ وهي تتبادلُ الطـَعَناتِ والضَرَباتِ بالسيوفِ والسَّواطيرِ والدَّبابيسِ والرِّماحِ، وقد اخْتلطَ ذلكَ كلُّه بعضُهُ ببَعضٍ، فارتفعَ صَليلُهُ، وعَلَتْ قعقعتُهُ، حتى غطّى على صَهيلِ الخيلِ، وزئيرِ الأ بْطالِ، وأنّاتِ الجرْحىٰ، وحَشْرَجاتِ القَتْلىٰ.

استمرَّتِ المعركةُ ساعاتٍ كانتْ رَحا الحربِ تدورُ فيها على الفِرَنجِ فتسحقُهُم سَحْقاً. وكان إخوانُهم ينظرونَ إليهم عبرَ النَّهرِ والألَـمُ يُفَتِّتُ أكبادَهُم لِعَدَمِ قُدْرَتِهِم على مَدِّ يَدِ العَوْنِ إليهم، لأنَّ الجِسْرَ لم يَكُنِ قَد تَمَّ بناؤهُ.

وأدرك دوق بُرْغَنْدِيَةَ، وهو يُشاهدُ المعركةَ مِنْ على الضفَّةِ الشِّماليةِ، أنَّه لا بُدَّ مِن انتِقالِهِ بمُشاتِهِ ورُماتِهِ إلى الضفةِ الجنوبيةِ بأيَّةِ وسيلةٍ كانت، وإلاَّ

فإنَّها النهايةُ المُحزنةُ المحتومةُ على الملكِ وكلِّ مَنْ معَهُ من الفُرسانِ. وعلى الفَوْرِ أمَرَ باقامةِ جِسْرٍ مِنَ الزَّوارقِ والقَوارب، ثم عَبَرَ عليه هو وقواتُهُ لِنَجدةِ الملكِ الذي أشرفَ على الهلاكِ.

استطاعَ دوق بُرْغنديةَ أن يخفِّفَ برُماتِهِ شيئاً من الضَّغْطِ الواقعِ على الملكِ وفُرسانِهِ، ولكنَّه لم يستطعْ أن يُغَيِّرَ وَجْهَ المعركةِ، وظلَّتِ الدائرةُ تدورُ على الفِرنجِ إلى أن أرْخى الليلُ سُدُولَهُ، فَتَحاجَزَ الفريقانِ، وسَلِمَ الملكُ من القَتْلِ ليقعَ فيما هو أسوأ مِنْه فيما بَعْدُ.

هكذا انتهَتْ معاركُ يومِ الثَّلاثاء داخلَ المنصورةِ وفي ضَواحِيها، وعلى ضِفَّةِ النَّهْرِ. وقَدِ استمرَّتْ منذُ الصباحِ الباكرِ حتى المساء دونَ أن يتوقَّفَ القِتالُ فيها إلاّ لَحَظاتٍ قليلةً، انتهتْ بِغَلَبَةِ

المسلمينَ واندحارِ الفِرَنْجِ بعدَ أنْ فَقَدُوا زَهْرَةَ فُرسانِهِم وخِيرَةَ رِجالِهِم.

والحقُّ أن الفِرنجَ أبدَوْا في هذا اليومِ ضُروباً مِن الشَّجاعَةِ والبَسالةِ شَهِدَ لهم بها أعداؤهُم، ولكنَّ ذلكَ لم يُجْدِهِم نَفْعَاً أمامَ بَراعةِ المماليكِ في الكرِّ والفرِّ، وخِبْرَتِهِمُ الفائقةِ في فنِّ القِيادةِ، ومهارتِهِم المعروفةِ عَنهم في استعمالِ السِّلاحِ بكافةِ أنواعِهِ.

معركة يوم الجمعة

في صبيحةِ اليومِ التالي عقدَ الأميرُ بِيبرسُ قائدُ الجيشِ مَجْلساً من مستشاريهِ تقرَّرَ فيه القيامُ بهجومٍ شاملٍ كبيرٍ للقضاء على بَقِيَّةِ الجيشِ الصليبيِّ في يومِ الجُمعةِ الحادِي عَشَرَ مِن شُباطَ. ولكنَّ الصليبيينَ عرفوا أمرَ هذا الهجومِ من أحدِ جَواسِيسِهِم، فبادرَ

الملكُ باعدادِ جيشِهِ، ورتَّبَهُ في سَبْعِ فِرَقٍ كبيرةٍ انْتظَمَتْ على طولِ الضفَّةِ في مواجَهَةِ معسكرِ المسلمينَ. وتركَ لِنفسِهِ فرقةً قويَّةً جَعلَ موقِعَها خلفَ خطِّ الفِرَقِ السَّبْعِ حيثُ كانتْ قيادَتُهُ العامَّةُ. أما شِماليَّ النهرِ فقد تَرَكَ ثلاثَ فِرَقٍ، واحدةٌ مِن الرُّماةِ لحمايةِ الجَناحِ الأَيْسرِ، والأُخْرَيانِ احتياطيٌّ لاستخدامِهِ عندَ اللزومِ.

كان موقفُ الصليبيينَ هناكَ غايةً في الدِّقَّةِ والخطورَةِ، فقد كانتْ تحيطُ بِهم من خلفِهِم وعلى جانِبَيْهِم أنهارٌ وتُرَعٌ عميقةٌ سريعةُ الجَرَيانِ، وكانَ أمامَهُم العدوُّ، ولم يكنْ لهم سبيلٌ إلى الإتصالِ بمُعَسكرِهِم في الضفَّةِ الشِماليَّةِ لبحرِ أشْمومَ إلاّ قنطرةً واحدةً خَشَبيَّةً. ثم إنّ جيشَهُم ولو أنَّ جَناحَهُ الأَيْسَرَ كانتْ تحميهِ بعضَ الشيء فرقةُ حَمَلَةِ القِسِيِّ

بقيادةِ السِير هَنْري دي كون المرابطةُ على الضفةِ الشماليةِ، إلاّ أنَّ الجناحَ الأيْمَنَ كان مكشوفاً أمامَ القواتِ الإسلاميةِ التي تهدِّدُهُ تهديداً مُباشِراً. وقد أدركَ بِيبرسُ ذلك جيداً، فأحسنَ اسْتِغْلالَهُ كما سَنَرى مِنْ وقائعِ المعركةِ.

أمّا تعبئةُ الجيشِ الإسلاميِّ فكانت نَمَطاً جديداً في فنِّ التعبئةِ أبْدَعَتْهُ عبقريةُ بِيبَرْسَ ليتلاءمَ مع قِلَّةِ عَدَدِ جنودِهِ، وليسمحَ لهم باستغلالِ مِيزَتِهِم في سُرعةِ الحركةِ.

ولنستمعْ مَرَّةً أخْرى للسيّد جوانفيل يَصِفُ لنا هذهِ التَّعْبِئةَ، و يَسْرُدُ لنا وقائعَ هذهِ المعركةِ الخاطفةِ. كتبَ في مُذكّراتِهِ يقولُ:

«أرسلَتِ الشمسُ أوّلَ خيوطِها، ورأينا الأرضَ كأنَّها تتحركُ أمامَ ناظِرينا حينَ أقبلَ أربعةُ آلافِ

فارسٍ يحملونَ سِلاحَهُم، و يتهادَوْنَ على ظُهورِ جِيادِهِم في مَنْظرٍ رائعٍ، ووقفوا تُجاهَنا في أبرعِ نظامٍ. و بعدَ قليلٍ ظَهَرَ من خلفِهِم جيشٌ جَرَّارٌ مِن المُشاةِ، حَجَبَ مِنْ كَثْرَتِهِ أمامَنا وجهَ الأفُقِ، فأحاطوا بجيشِنا كلِّه. وعلى الأثَرِ ظهرَ مِن وراء هؤلاء جيوشٌ أخْرى لا يُدْرِكُ البصرُ مَداها، فاصطفَّتْ في المُؤَخَّرَةِ على نَسَقٍ عجيبٍ[1] . ولاحَ القائدُ المِصريُّ على رأسِ جُيوشِهِ يُنَظِّمُها، و يرتِّبُ

---

(١) يرجى من القارىء أن يتنبه على أن قائل هذا الكلام هو عدو مهزوم. ومن عادة كل مهزوم أن يعزو هزيمته الى كثرة عدد خصمه. أما الواقع فهو أن جيش المسلمين لم يكن يزيد على خمسة وعشرين ألفاً، منهم أربعة آلاف فارس كما يعترف بذلك جوانفيل نفسه. في حين أن الصليبيين كانوا يزيدون على السبعين ألفاً بعد كل خسائرهم السابقة.

صُفوفَها وأماكِنَها. فلما انتهى من ذلكَ تقدَّمَ وحدَهُ على ظَهرِ جوادِهِ، وسَرَّحَ البَصَرَ في قواتِنا. فكانَ يَأمرُ بزيادةِ جُنْدِهِ حيثُ يَرى جُنْدَنا أوْفَرَ، وبإنْقاصِها في الأماكِنِ التي يرانا فيها أقلَّ قوةً. وظلَّ هذا القائدُ مُنْهمِكاً في تلكَ العملياتِ حتى انتصَفَ النَّهارُ. وعندئذٍ وقفَ وسطَ جُنودِهِ في مَهابةٍ وجَلالٍ، وبإشارةٍ منَ يدِهِ دوَّى في الفضاء فُجاءةً صوتُ الطُّبولِ وضَرْبُ النَّقَزانِ (نوعٌ مِن الطبولِ)، وكأنَّما زُلْزِلَتِ الأرْضُ وانتفضَتِ السَّماء بقصفِ الرُّعودِ، فامتلأتْ بالدهشةِ والرَّوْعةِ قلوبُ أولئكَ الفِرَنسيِّينَ الذين ما طَرَقَ سمعَهُم من قَبْلُ مثلُ هذا الصَّوْتِ الرهيبِ. ثم بَدَأ الخيَّالةُ والرَّجالَةُ في السَّيْرِ معاً في خُطْوَةٍ واحدةٍ وفي كلِّ جانبٍ. وبدأ الهجومُ.

«وتنقَّلَتْ فِرَقُ العدوِّ على رُقْعَةِ المَيْدانِ بنظامٍ

عجيبٍ، كأنَّما لاعبٌ ماهرٌ يَنْقُلُها على رقْعَةِ شَطْرَنْجٍ. واندَفَعَ مُشاتُهُم نحوَ رِجالِنا فَأصْلَوْهُم بالنارِ الإغريقيةِ. ثم انْقضَّ فرسانُهُم في سرعةٍ عظيمةٍ وحَماسةٍ هائلةٍ على فرقةِ كونت دانجو، فأنزلوا بها هَزيمةً نَكراء. وكانَ الكونتُ منتَصِباً على قَدَمَيْهِ، ومُعَرِّضاً نفسَهُ للخطرِ المحقَّقِ، لولا أنْ أنقذَهُ أخوه الملكُ، وردَّ الأعداء عنه. بَيْدَ أن الجيشَ أصِيبَ بضربةٍ قاضِيَةٍ، فبَيْنَ الفِرَقِ السَّبْعِ التي يتألَّفُ منها هلَكَتِ اثـنتانِ: إحْداهما بقيادةِ الفِرير وِليم دِي سوناك قائدِ الفرسانِ الداويَّةِ. وكان قد دخلَ المعركةَ بِمَنْ بَقُوا على قَيْدِ الحياةِ مِنْ رِجالِهِ بعدَ موقعةِ يوم الثلاثاء المروِّعةِ. ولما كانَ شاعراً بضَعْفِها فقد أقامَ أمامَ مُعَسكرِهِ حاجزاً مِن المتاريسِ يتكوَّنُ من بعضِ ما غَنِمُوه من العدوِّ، وما جمعُوه من كُتَلِ

الخَشَبِ. ولكنَّ هذا كلّه كانَ عَبَثاً لا طائلَ مِن ورائهِ، فقد أحرَقَهُ المسلمونَ بنارِهِم، وأطبَقُوا على رِجالِ الفرقةِ في شِدَّةٍ وعُنْفٍ، وسُرْعانَ ما قَضَوْا عليهم القضاء المُبْرَمَ. وكانَ قائدُها دي سوناك قد فَقَدَ إحدى عَيْنَيْهِ في معركةِ يوم ِ الثلاثاء الآنفةِ الذِّكْرِ، ففقَدَ الثانيةَ في هذهِ المعركةِ، ثم سقطَ قتيلاً وهو يدافعُ إلى آخرِ رَمَقٍ دفاعَ الأبطالِ.

«أما الفِرْقةُ الأخرى التي فَتَكَ بها العدوُّ فكانتْ بقيادةِ الكونتِ دي بواتييه. وهي تتألَّفُ مِن المُشاةِ، عدا الكونتَ فقد كانَ راكباً جوادَهُ. فأبيدتْ هذه الفِرقةُ عَن آخِرِها، وأسِرَ قائدُهَا. غير أنَّه تمكَّنَ من الفِرارِ إلى معسكرِ الفِرنجِ.

«والفِرقةُ التاليةُ لِفِرقةِ الكونتِ دي بوايتيه كانَ على رأسِها السِيرُ جوسِيرادرُ دي برانسون. وهي

أضعفُ الفِرَقِ جميعاً، وتتكوّنُ مِن المشاةِ، فنفذَ العدوُّ بينَ صُفوفِها في كلِّ جانبٍ، وأوشكَ أن يُفْنِيَها كلَّها جمعاء لولا أنْ أدركَها الكونتُ دي كون بجماعةٍ كبيرةٍ من جنودِهِ حَمَلَةِ القِسِيِّ من الضفَّةِ الأخرى للنهرِ، فأنقذُوا بعضَ رِجالِها، وإن كانَ دي برانسون قد سقطَ قتيلاً، وخرَّ بجوارِهِ صُفْوَةُ فرسانِهِ، ومعظمُ البواسلِ مِن جُنْدِهِ».

يُمكنُ من هذا الوصفِ المُجْمَلِ أن نستنتجَ أشياء كثيرة تدلُّ كلُّها على مِقدارِ ما كانَ يتحلّى بهِ بيبرسُ مِن عبقريةٍ عَسْكريةٍ، وما كانَ يتحلى به جيشُهُ من حُسْنِ تَنْظيمٍ وتَدْريبٍ.

فأولاً ـــ عبَّأ جيشَهُ مُقَدِّمةً وقَلْباً وساقَةً فقط. أما الجَناحانِ فقد استغنى عنهما لِضيقِ المكانِ، وليُعْطِيَ فرسانَهُ أوسَعَ مجالٍ للمناورةِ يَميناً وشِمالاً.

ثانياً ـــ كان يحرِّكُ قِطَعَ جيشِهِ بإشارات ٍمُتَّفَقٍ عليها بينَهُ وبينَ قُوّادِهِ، وهذا ما مَنَحَ الجيشَ الإسلاميَّ سرعةً في الحركةِ مع دقَّةٍ ونظامٍ.

ثالثاً ـــ وَجَّهَ هجومَهُ الأوَّلَ نحوَ الجناحِ الأيْمنِ المكشوفِ والمحرومِ من أيَّةِ حِمايةٍ من الرماةِ الذين كانوا على الضفَّةِ الشماليةِ.

رابعاً ـــ بعدَ أن سحقَ الجناحَ الأيمنَ للعدوِّ راحَ يُسدِّدُ ضَرَباتِهِ في خِفَّةٍ وسُرعةٍ نحو النِّقاطِ الضعيفةِ لسحقِها وإحداثِ الخَلَلِ في صُفوفِ الجيشِ كلِّه.

خامساً ـــ كانَ يُمَهِّدُ لكلِ هجومٍ بقَصْفٍ ناريٍ، ليشْغَلَ العدوَّ بالنارِ، ويمنَعَهُ من التَّفَرُّغِ لصدِّ الهجومِ.

وعلى الجُمْلَةِ، فإنَّ وصفَ جوانفيل يُوحي

بوضوحٍ أنَّ المبادرةَ كانتْ كلُّها في يدِ الجيشِ الإسلاميِّ، فكانَ هو المهاجِمَ دائماً، كما كانَ هو الذي يختارُ موعدَ الهُجومِ ومكانَهُ. أمّا الجيشُ الصليبيُّ فيبدو لنا كأنَّه مشلولُ الحركةِ والإرادةِ، وليس له منَ عملٍ سِوى تلقِّي الضَّرباتِ الماحقةِ في صَبْرٍ واسْتِسْلامٍ.

الوباء يتفشى في المعسكر الفرنسي:

بعد هاتينِ المعركتينِ اللّتينِ جَعَلَتا الجيشَ الفرنسيَّ عاجزاً عن أيَّةِ حركةٍ تَوَقَّفَ المسلمونَ عن مُهاجمتِهِ تاركينَ لليأسِ والسَّأمِ أن يَقْضِيا على البَقِيَّةِ الباقيةِ منه.

وما هِيَ إلاَّ أيامٌ حتى تَفَشّى الوباء في مُعَسْكرِ الفِرَنْجِ، ولم يَجِدوا وسيلةً للتخلُّصِ من جُثَثِ مَوْتاهُم إلاّ أن يُلْقُوها في النيلِ وبَحرِ أشْموم. لكن هذه

الجُثَثَ بدأتْ تَطْفو على وَجْهِ الماء، وبَلَغَ من كَثْرَتِها أنَّها غطَّتْ سَطْحَهُ. لم يَسَعِ الملكَ المِسْكينَ في آخِرِ الأمْرِ إلاّ أن يَسْتخدِمَ عَدداً من رِجالِهِ لانتشالِ الجُثَثِ الطافِيَةِ، ودفنِها في الأرضِ.

ولم يَقِفِ الأمْرُ عندَ هذا الحدِ، بل ظهرَ فيهم أيضاً مرضُ الإسْقَرْبُوطِ نتيجةً لنَفَادِ المُؤنِ وقِلَّةِ التغذيَةِ، فأصيبَ مُعظمُ رجالِ الجيشِ بِهِ، وكانَ يموتُ منه في كلِّ يومٍ ما بين عِشرينَ وثلاثينَ مُحارِباً. ومعَ ذلك كلِّه، فإنَّ فكرةَ الانْسحابِ لم تَدُرْ بخاطِرِهِم حتى ذلك الوقتِ، لأنَّ تعصُّبَهُم الأسودَ كان قد أعْمى أبصارَهُم وشلَّ تفكيرَهُم.

ولكنَّ المسلمينَ لم يُبالوا ذلك. فما دامَ المرضُ قد تكفَّلَ بهؤلاء المتعصِّبينَ الحاقِدِينَ، وما داموا يُؤثِرونَ الموتَ جُوعاً ومَرَضاً على الانْسحابِ من أرضِ

الإسلامِ، فليكُنْ لهم ما أرادُوا.

وصول توران شاه:

في الخامسِ والعِشرينَ من شُباطَ ١٢٥٠، أي بعدَ معركةِ يومِ الجمعةِ بأسبوعَينِ قَدِمَ إلى المنصورةِ الملكُ المُعظَّمُ غِياثُ الدينِ تُوران شاه بنُ السلطانِ الراحلِ الصالحِ أيّوبَ. وفي الحالِ رُفِعَ إلى عرشِ السَّلطنةِ، وجاءتْ زوجةُ أبيهِ شجرةُ الدُّرِّ فوضعتْ بيَدِهِ كلَّ السُّلُطاتِ التي كانتْ بيَدِها. وعندئذٍ أعْلِنَتْ رسمياً وَفاةُ السلطانِ الملكِ الصالحِ نجمِ الدينِ أيّوبَ.

وكانَ أوّلُ ما فكَّرَ به السلطانُ الجديدُ هو إنزالَ ضربةٍ قاضيةٍ بالجيشِ الفرنسيِّ عن طريقِ قطعِ الإمداداتِ عنه، لا عَن طريقِ مُصادمتِهِ. وتنفيذاً لهذهِ الفكرةِ كرَّرَ ما فعلَهُ جَدُّهُ المَلِكُ الكاملُ محمدٌ

بجيشِ الحَمْلَةِ الصليبيَّةِ الخامِسَةِ تحتَ قيادةِ جان دي برين، إذ أمَرَ فَصُنِعَتْ عِدَّةُ مَراكبَ على شكلِ قِطَعٍ مُفَكَّكَةٍ، ثم حُمِلَتْ على ظُهورِ الجِمالِ، ونُقِلَتْ بَرّاً إلى ما وراء الأسطولِ الصليبيِّ المُرابطِ في نَهْرِ النيلِ بإزاء الجيشِ. وهُناكَ أعِيدَ تَرْكيبُها، وأنْزِلَت إلى النَّهرِ بعدَ أن تمَّ تزويدُها بالمُحاربينَ. وهكذا قَطَعَ طريقَ الإمداداتِ النهريةِ ما بينَ الصليبِّيينَ في ضَواحي المنصورةِ، وما بينَ قاعدةِ إمدادِهِم دِمياطَ. بل أصبحَ الأسطولُ الصليبيُّ المرافقُ للجيشِ محصوراً بينَ الأسطولِ الإسلاميِّ في الجُنوبِ، وبينَ هذا الاسطولِ الجديدِ في الشِّمالِ.

كان طبيعياً أن يُحاوِلَ الأسطولُ الفرنسيُّ فكَّ الحصارِ المَضروبِ عليه، فاشتبَكَ مع الأسطولَينِ المحاصِرَيْنِ له في عِدَّةِ مَعاركَ كانت وَبالاً عليهِ، إذْ

خَسِرَ في الأولى اثنَتَيْنِ وخمسِينَ سفينةً أسَرَها المسلمونَ واستَوْلَوْا على كلِّ ما فيها من زادٍ ومُعَدّاتٍ، كما ذهبَ قُرابةُ ألفِ فرنسيٍ بينَ قتيلٍ وأسيرٍ. وخَسِرَ في الثانيةِ، وكانتْ في السابعِ من شهرِ آذارَ، سَبْعَ سُفُنٍ أخْرى بكلِّ ما كانتْ تحمِلُهُ من مُؤنٍ وعَتادٍ. أما الثالثةُ، وكانتْ في الخامسَ عَشَرَ مِن الشهرِ نفسِهِ، فقد خَسِرَ فيها اثنتَينِ وثلاثِينَ سفينةً من أضْخَمِ قِطَعِهِ.

كانَ مِن نتيجةِ الشَّلَلِ الذي أصيبَ بِهِ الأسطولُ الفِرَنْجيُّ في مِياهِ النيلِ أنِ انْقطعَتِ الإمداداتُ عن الصليبيِّين انقطاعاً تاماً، فنَفِدَتْ مُؤنُهُم، وحلَّتْ بِهِمُ المَجاعَةُ، حتى أكلوا لحومَ الخَيْلِ والبغالِ، بل لقد اضطُرُّوا إلى أكلِ جُثَثِ الحَيَواناتِ التي نَفَقَتْ مِن الجوعِ أو المَرَضِ.

هنا أدركَ الملكُ لويسُ أنَّ الأمْرَ قدِ انتهى، وأنَّ

مِن الخَيْرِ لهُ أن يَسْعى في انقاذِ ما يُمكنُ انقاذُهُ من جيشِهِ ومن ماء وَجْهِهِ، فأرسَلَ يَطلُبُ الصُّلْحَ وإيقافَ القِتالِ. وكان رسولُهُ في المُفاوضاتِ الفارسَ جوفروا دي سارجين، أما رسولُ السلطانِ فكانَ قاضيَ القُضاةِ بدرَ الدينِ السِّنْجارِيَّ.

واجتمعَ المُتفاوضانِ، فعرضَ رسولُ لويسَ شروطاً لم تكنْ معقولةً وهو في مِثْلِ موقِفِهِ الضعيفِ، إذِ اشْترطَ في مُقابلِ إعادةِ دِمياطَ ومُغادرةِ البلادِ، أن يتنازلَ لهم السلطانُ عن بَعْضِ المُدُنِ الساحليَّةِ في فِلِسطينَ. وهي الشروطُ أنْفُسُها التي عرضَها دي برين مِن قَبْلُ على المَلِكِ الكاملِ مُحمدٍ. ولكنَّ مندوبَ المسلمينَ رفضَ هذه الشروطَ رفضاً باتّاً، وانْقطعَتِ المفاوضاتُ دونَ الوصولِ إلى أيَّةِ نتيجةٍ كانتْ.

نهاية العدوان والمعتدي

كانَ الفِرنجُ بعد توقُّفِ المفاوضاتِ في موقف لا يُحسَدونَ عليهِ. وأخذتْ حالتُهُم تَزدادُ سُوءاً يوماً بعد يومٍ. وكانوا حَيَارَى لا يدرونَ ما يَفعَلون.

فأمّا الحربُ فقد أيْقَنوا أنَّهم باتوا عاجِزينَ عنها، وأنَّ عدوهُم إنْ كانَ لا يُجْهِزُ عَلَيهم، ولا يُسَدِّدُ إلى رؤوسِهِم رصاصَةَ الرَّحمةِ، فَلِثِقَتِهِ بأنَّ الجوعَ سيتكَفَّلُ بذلك.

وأما البقاء فمعناهُ الموتُ جُوعاً كما تموتُ الفِئرانُ في أجْحارِها.

وأما الانسحابُ فمعناهُ الاعْترافُ بالهزيمةِ، وانهيارُ الآمالِ العِراضِ التي خرجوا بها من فرنسةَ.

ومعَ ذلك، كانَ لا بُدَّ مِن فِعْلِ شيء.

مَذبحة فارسكور

وفي الحالِ عَقَدَ لويسُ مجلساً من كِبارِ رِجالِهِ للتَّداوُلِ في الأمْرِ، وانتهى الاجْتماعُ باتِّخاذِ قَرارٍ بالانسحابِ إلى دِمياطَ للتحصُّنِ بِها.

في صبيحةِ اليوم التالي أصدرَ المَلِكُ الفرَنسيُّ أمرَهُ بانسحابِ القِطَعاتِ المُعَسْكِرَةِ على ضفَّةِ النهرِ الجُنوبيَّةِ إلى المعسكرِ القائمِ على الضفَّةِ الشِّماليةِ. وبعد أن تَمَّتِ العمليةُ بصعوبةٍ شديدةٍ بدأ الفِرنجُ يُعِدُّونَ أنْفُسَهم للتراجُعِ العامِّ إلى دِمْياط، فَقَضَوْا خمسةَ أيامٍ، من أوَّلِ نَيْسانَ إلى الخامسِ منه،

يَجمعونَ مَرْضاهُم وجَرْحاهُم و ينقلونَهُم إلى السُفُنِ استعداداً للرَّحيلِ.

وفي مساء الثُّلاثاء الخامسِ من نَيْسانَ، وكان الليلُ قد أرْخى سدولَهُ، وسادَ المِنْطَقَةَ سُكونٌ مُوْحِشٌ، بدأتْ عمليةُ التراجُعِ.

تَحَرَّكَ الصليبيونَ مِن مُشاةٍ وفُرسانٍ مُتَّجهينَ نحو الشِّمالِ إلى قاعِدَتِهم في دِمياطَ، فسارَ القادرونَ مِنهم بِمُحاذاةِ الشاطِىءِ الأيْمَنِ للفَرْعِ الشرقيِّ للنيلِ، على حينَ انحدرَتْ سفنُهم بجانِبِهم في النيلِ تُقِلُّ المَرْضى والعاجزينَ. وتركوا وراءهُم أكواماً مكدَّسَةً من الخِيامِ والأسلحةِ غنيمةً باردةً للمُسلمينَ.

وإذْ كانوا في عَجَلَةٍ من أمْرِهِم، فإنَّهم نَسُوا تحطيمَ الجِسْرِ الذي عَبَروا عليه إلى الضفَّةِ الشِّماليةِ،

فانقضّ عليهِ المسلمونَ واحتَلّوه، ثم عَبَرُوا فوقَهُ لمطاردةِ الجيشِ المُتراجِعِ.

استمرَّتِ المطاردةُ العنيفةُ طَوالَ الليلِ، الفرنسيّونَ في الأمامِ يُوسِعُونَ الخُطا نحو الشِّمالِ، والمسلمونَ مِنْ وَرائِهم قد رَكِبُوا أكتافَهُم، وراحُوا يَتَخَطَّفُونَهم و يقتلونَ كلَّ مَنْ كَلَّتْ رِجلاهُ عَن حَمْلِهِ.

وفي صَباحِ الأربعاء، وكانَ المتطاردونَ قد وصلُوا إلى قريةِ فَارِسْكُورَ، حدثَتِ الكارِثةُ الكُبرى التي لم يُصَبْ بِمِثْلِها جيشٌ مُنْسحبٌ في كلِّ التاريخ العَسْكريِّ. فقد أطْبقَ المسلمونَ على مُؤَخَّرَةِ الجيشِ الفرنسيِّ، وحاصرُوها من كلِّ جانبٍ، ثم انهالوا عليها بكلِّ أنواعِ الأسلحةِ طَعْناً وضَرْباً وذَبْحاً، حتى قتلُوا منهم ما يَرْبُو على ثلاثينَ ألفاً، كما أسَروا عدداً

لا يُسْتَهانُ بِهِ من فُرسانِهِم ومُشاتِهِم، وغَنِمُوا مِن السلاحِ والخُيولِ والبِغالِ عَدَداً لا يُحْصى. ولم يَخْسَرِ المسلمونَ في هذهِ المعركةِ المَذْبَحَةِ سِوى مِائةِ شهيدٍ فقط.

أسر الملك

لم يُنْقِذْ مُؤخرةَ الجيشِ الفرنسيِ من الفناء الكاملِ إلاّ إسراعُ المَلِكِ لنجدَتِها مع مَنْ بَقِيَ من فرسانِهِ في المقدِّمَةِ. وبعدَ أن فُرِّجَ عنها واستردَّتْ أنفاسَها، رفضَ الملكُ العودةَ إلى المُقَدِّمَةِ، وأصرَّ على البقاء في المُؤَخَّرَةِ يُشاركُها مِحْنَتَها. ومضى يُواصلُ سيرَهُ على ظهرِ جَوادٍ صغيرٍ حتى بلغَ هو ومَنْ مَعَهُ قريةً تُدْعى مُنْيَةَ أبي عبدِ اللهِ، وهي التي تُعرفُ اليومَ باسمِ مِيت الخولي عبد الله. وعندئذٍ كان الهجومُ الأخيرُ على المؤخَّرةِ المُنْهَكَةِ، إذْ أحاطَ المسلمونَ

بها، وراحوا يفتِكُونَ بِها فتكاً ذَريعاً.

وخَشِيَ رِجالُ المَلِكِ عليه القَتْلَ، فحاوَلوا الهَرَبَ بِهِ إلى المُقَدَّمَةِ، ولكنَّه كانَ في حالةٍ مِن الإِعياء لا تَسمحُ بذلك، فحملُوه إلى منزلٍ في تلكَ الناحيةِ، وهو غائبٌ عنِ الوَعْيِ من شِدَّةِ ما أصابَهُ مِن التعبِ والإِرهاقِ، ثم أحاطوا بالمنزلِ للدِّفاعِ عنه، ومَنْعِ المسلمينَ مِن الوُصولِ إليهِ.

وعندَما ثابَ إليهِ رُشْدُهُ أوْفَدَ أحَدَ كبارِ قُوّادِهِ إلى المسلمينَ يَطلبُ الدُّخولَ في مُفاوضاتٍ لإِنهاء القِتالِ بالشروطِ التي يُريدونَها. ولكنَّ المسلمينَ رفضوا ذلك لِعِلْمِهِم بأنَّ لويسَ لم يَعُدْ يَملِكُ شيئاً يُفاوضُ عليه.

وازدادَ الضَّغْطُ على لويسَ، فلم تَجِدِ البَقايا الهزيلةُ مِن الجيشِ الفرنسيِ بُدّاً مِن إلقاء السِّلاحِ، فرفعوا جميعُهم رايةَ الاسْتِسْلامِ في يومِ الأربعاء

السادسِ مِن نَيْسانَ رغبةً مِنهم في إنقاذِ حياةِ مَليكِهِم، وهَرَباً مِن البَلايا المُتلاحقَةِ التي ألَمَّتْ بِهِم.

وعلى الأثَرِ أحْدَقَ المسلمونَ بالمَلِكِ ومَنْ مَعَه من الفرسانِ، فطلبَ مِنهم الأمانَ، فحضرَ إليهِ أحَدُ الطواشِيَةِ الذي يُدعَى جمالَ الدينِ مُحْسِن الصالحيَّ، وأمَّنَهُ على حَياتِهِ. لكنَّ بعضَ الفرنجِ الذين كانوا معَهُ عزَّ عليهم أنْ يَرَوْهُ أسيراً مُكبَّلاً، فأرادوا تخليصَهُ مِنْهم، فأحَاطَ المسلمونَ بِهِم، واشتدّوا في قِتَالِهم حتى أبادوهُم عَن آخرِهِم، ثم ألْقُوا القَبْضَ على لويسَ واقتادوهُ إلى سفينةٍ كبيرةٍ أقلعتْ بِهِ حالاً عائدةً إلى المنصورةِ.

وهناك وُضِعَتِ السَّلاسلُ في يَدَيْهِ ورِجْلَيْهِ، وحُشِرَ مَعَ أخَوَيْهِ كونت دانجو وكونت دي بواتييه في

حُجْرَة بالطابقِ الأرضيّ في دارِ القاضي فخر الدين بنِ لُقْمانَ بِجِوارِ جامعِ الشيخِ المُوافي القائمِ في وَسَطِ المَدِينةِ، وعُهِدَ إلى الطواشي «صَبيحٍ المُعَظَّمِيِّ» بحراسةِ الأسْرى الكِبارِ، وإكرامِهِم الإكرامَ الذي يَلِيقُ بالمُلوكِ والأمراء.

وبعدَ أيّام أرسلَ توران شاه إلى لويسَ وإلى كبارِ الفِرَنْجِ الأسْرى خِلَعاً نَفِيسةً، فَقَبِلَها الجميعُ إلاّ هو، فإنَّه قال باستِكْبارٍ:

ــ إنَّ مَمْلكتي في فِرَنسة لا تَقِلُّ عَن مملكةِ السلطانِ في مِصْرَ، فكيفَ أقبلُ مِنه إنعاماً؟

وفي يومٍ آخَرَ أقامَ السلطانُ حفلةً كبيرةً ابتهاجاً بالنَّصْرِ، ودَعا إليها كِبارَ الأسْرى، فلبّى الجميعُ الدَّعْوَةَ إلاّ هو أيضاً، وقالَ لِرجالِهِ:

ــ إنَّ السلطانَ لا يَدعوني من أجلِ أنْ يُكْرِمَني،

ولكنَّهُ يُرِيدُ الاسْتمتاعَ في حَفْلتِهِ برؤيَتي أسيراً ذَليلاً على مائدتِهِ.

فانظرْ أيُّها القارىء إلى السلطانِ المنتصرِ كيفَ يعفو بعدَ المَقْدِرَةِ، و يُكْرِمُ أسراهُ بالجلوسِ مَعَهم إلى مائدتِهِ، ولا يُبْدِي إلاّ ما عُرِفَ عَن المسلمينَ مِن الشهامةِ والسماحَةِ والكَرَمِ، ثم انظرْ إلى هذا المغلوبِ المقهورِ الذي لم تفارقْهُ عُنْجُهيَّتُهُ الجَوْفاء، والذي أكلَ الحِقْدُ والكَرَاهِيَةُ واللُّؤمُ قَلبَهُ، حتى غدا يَظُنُّ الإكرامَ شماتَةً، والشَّهامةَ والسَّماحةَ إذلالاً وتَشفِّياً. ولكنْ صَدَقَ قولُ مَنْ قالَ: «أظنُّ بالناسِ ما أراهُ في نَفْسِي».

الأسطول الصليبي يقع في الأسر

لم يَكُنِ الأسْطولُ الصليبيُّ بأحسنَ حظاً من الجيشِ المُستسلِمِ. فما كادتْ قِطَعُهُ تَصِلُ مَشارِفَ

فَارِسْكُورَ حتى أَحْدَقَتْ بِها البحريَّةُ الإِسلاميَّةُ من الشَّمالِ والجُنوبِ، وراحتْ تَصْلِيها ناراً إغريقيَّةً حاميةً، ثم قفزَ المسلمونَ عليها بالسُّيوفِ والخَناجِرِ، وقَتَلوا وأَسَروا مَن كانَ فيها من المُقاتلةِ والملاّحِينَ، وأخذُوها أخذاً وَبيلاً. ولم يُفْلِتْ منها سِوى سفينةٍ واحدةٍ، تمكَّنَتْ مِن التسلُّلِ عِبْرَ قِطَعِ البحريةِ الاسلاميةِ، وولَّتِ الأدبارَ إلى دِمياطَ تحملُ لِمُحْتَلِّيها الإفرنجِ أنباء الكارثةِ المُدَمِّرَةِ التي حَلَّتْ بالمَلِكِ وجيشِهِ وأسطولِهِ. تلك كانتْ سفينةَ القاصدِ الرَّسولِي لِلْحَمْلَةِ (أي ممثِّل البابا).

مفاوضات الصلح

بعدَ أيامٍ قليلةٍ من هذهِ الحوادثِ شَجَرَ خِلافٌ بينَ السلطانِ الجديدِ الملكِ المعظَّمِ توران شاه ومَماليكِ أبيه الراحلِ الملكِ الصالحِ أيّوب. وقد

انتهى هذا الخِلافُ بقتلِ السلطانِ ورَفْعِ زوجَةِ أبيهِ شَجَرَةِ الدُّرِّ على عَرْشِ مِصْرَ باسمِ الملكةِ شَجرةِ الدُرِ عِصْمَةِ الدينِ أمِّ خليلٍ المُسْتَعْصِمِيَّةِ.

وفي هذه الأثناء طلبَ الفِرنجُ فتحَ بابِ المُفاوضاتِ، فأجابَهُم المسلمونَ إلى ذلكَ، وأرسلَ كلُّ جانبٍ مَنْدوبَهُ. فكانَ مندوبُ الفرنجِ «وِلْيَم» أميرَ الأراضِي الواطِئةِ، وكانَ مندوبُ شجرةِ الدرِ حسامَ الدينِ بَن أبي عليٍّ نائبَ السلطنةِ.

تعثَّرَتِ المُفاوضاتُ عِدَّةَ مَرّاتٍ، لكنّها انتهتْ أخيراً بالاتِّفاقِ على ما يَلي:

١ ــ يُعيدُ الصليبيونَ إلى المسلمينَ مدينةَ دِمياطَ بكلِّ ما فيها ودونَ أيِّ مقابلٍ كانَ.

٢ ــ يُقْسِمُ المَلِكُ لويسُ على ألا يَقْصِدَ سَواحِلَ الاسلام مَرَّةً اخرى.

٣ ــ يَدْفَعُ الفِرنجُ مَبْلَغَ ٤٠٠ ألفِ دينارٍ فِدْيَةً للملكِ ولسائرِ الأسْرى الذين بَلَغوا ١٢ ألفَ رجلٍ وعَشْرَ نساء، على أنْ يَتِمَّ دفعُ نصفِ المبلغِ قبلَ إطلاقِ سَراحِ الملكِ، والنِّصفِ الآخرِ بعدَ وصولِهِ إلى عَكّا.

٤ ــ لِضَمانِ دَفْعِ مُؤَخَّرِ الفِدْيَةِ يحتفظُ المُسلمونَ بشقيقِ المَلِكِ كونت بواتييه رَهينةً عِندهُم، ولا يُطلَقُ سَراحُهُ إلاَّ بعدَ دَفْعِ كاملِ المبلغِ.

٥ ــ لقاء ذلك كلِّهِ يَتَعَهَّدُ المسلمونَ مِن جانِبِهم برِعايةِ مَرْضى الفِرنجِ الذين بَدِمياطَ، والمُحافظةِ على مُعَدَّاتِهِم إلى أنْ تَحِينَ الفُرْصَةُ لأخْذِها.

ثم أقسمَ الطَّرفانِ على احترامِ هذهِ الشروطِ وعَدَمِ الإِخْلالِ بِها..

التنفيذ والرحيل

ما إنْ أبْرِمَتِ المُعاهدةُ حتى توجَّهَتْ قُوة ٌكبيرة ٌ من الجيشِ الاسلامي إلى دارِ ابنِ لُقْمانَ حيثُ كانَ الملكُ الأسيرُ وأخَواهُ، فنُقِلوا معَ كِبارِ الأسْرى مِن الفرنجِ تحتَ الحِراسةِ إلى أربعِ سُفُنٍ أقْلَعَتْ بِهِم إلى دِمياطَ، وأنْزِلَ المَلِكُ هُناكَ، فضُرِبَتْ لَهُ خَيْمة كبيرة ٌبالقُرْبِ من جِسْرِ دِمياطَ. وكانَ ذلك مساء يومِ الخَميسِ من شهرِ أيّارَ سنةَ ١٢٥٠م - ٦٤٨هـ.

وفي صَباحِ يومِ السبتِ السابعِ من أيّارَ أرسلَ لويسُ أحدَ رجالِهِ إلى دِمياطَ لِتَسْليمِها إلى المسلمينَ، فدخلَها هؤلاء، ورفعُوا فوقَها العَلَمَ الإسلاميَّ بعدَ احْتلالٍ دامَ أحَدَ عَشَرَ شهراً وتِسْعَةَ أيامٍ.

وفي مساء اليومِ نفسِهِ أخْلى المسلمونَ سبيلَ

المَلِكِ بعدَ أنْ دَفَعَتْ زوجتُهُ الفِدْيَةَ التي قَضَتْ يومَينِ في جَمْعِها. وكذلك أخْلِيَ سبيلُ سائرِ الأسْرى ما عدا شقيقَ الملكِ كونت بواتييه الذي احتَفَظَ به المسلمونَ رهَينةً إلى حينِ دَفْعِ القِسْطِ الثاني من الفِدْيَةِ المُتَّفَقِ عليها.

لكنَّ الملكَ عزَّ عليه أنْ يترُكَ أخاه في الأسْرِ مُدَّةً أطْولَ، فطلبَ من زَوْجَتِهِ أن تَسْعى لتوفيرِ باقي الفديةِ، ولكنَّها أخبرتْهُ بأنَّه لم يبقَ مَعَها ولا مع الآخَرينَ أيُّ دِرْهَمٍ، فقامَ رجالُ الملكِ والنُّبلاء فجمعوا ما بَقِيَ مَعهُم مِن أموالٍ، فبلغَ ذلك ١٧٠ ألفاً، ولم يبقَ لتمامِ المبلغِ سِوى ثلاثينَ ألفاً. وعندئذٍ نَصَحَ جوانفيلُ للملكِ بأنْ يُقْتَرِضَ هذا المبلغَ مِن فُرسانِ المَعبَدِ (وهم طائفةٌ من الرُّهبانِ وَقَفُوا أنْفُسَهُم على مُحاربةِ الإسلامِ والمُسْلمينَ). ولكنَّ

«الأبَ دي تريكور» رئيسَ هؤلاء الفرسانِ اعترَضَ على ذلك، وأنَّبَ جوانفيلَ لإبدائهِ مثلَ هذا الاقْتراحِ. كما هدَّدَ بأنَّه إن أخَذَ الملكُ مِنهم ذلك المبلغَ بالقُوَّةِ، فسوفَ يأخُذون لأنْفُسِهم تعويضاً من أمْلاكِ الملكِ في عَكّا. فَسَخِطَ جوانفيلُ لهذا التَّهدِيدِ، واستأذَنَ الملكَ في الذهابِ إلى سفنِ الفرسانِ للعَوْدَةِ بالمبلغِ المطلوبِ، وحينَ وصلَ مَنَعَه الفرسانُ الرُّهبانُ، ولكنه لم يُبالِ بِهِم، وكَسَرَ أقفالَ الصناديقِ، وجاء بالمبلغِ فدفعَه إلى الملكِ الذي سُرَّ بِهِ سروراً بالِغاً.

وهكذا دُفِعَتِ الفِدْيَةُ حتى آخِرِ دِرْهَمٍ، فَأطلَقَ المسلمونَ سَراحَ الكونتِ دي بواتييه لِيَرْحَلَ مع أخيهِ الملكِ.

ونُقِلَ الجميعُ إلى البَرِّ الغربيِّ لِدِمياطَ، وكانتْ

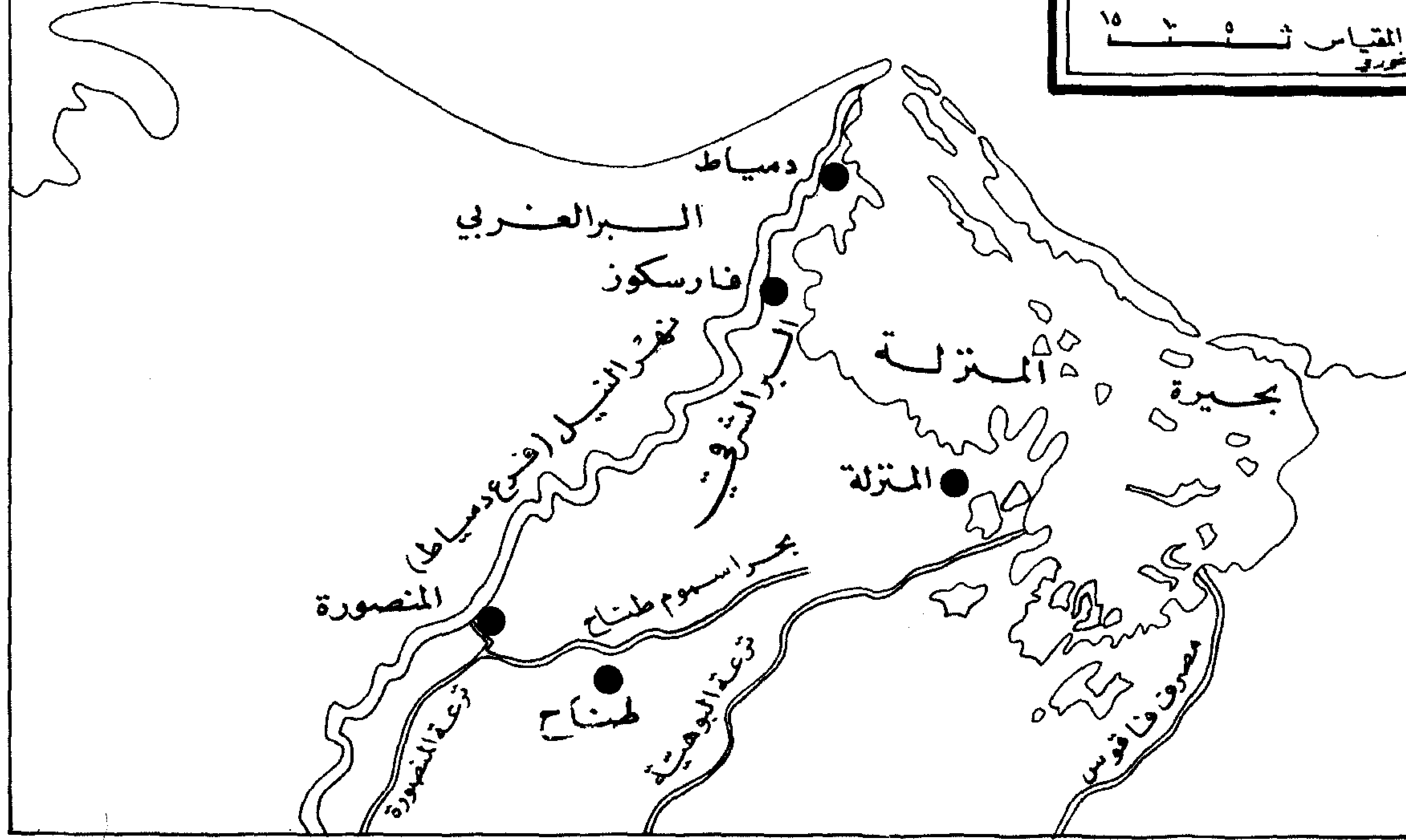
تُحيطُ بالملكِ قوةٌ كبيرةٌ من المُشاةِ المُسلمينَ، وهنالِكَ كانَ في انتظارِ لويسَ سفينةٌ جَنَوِيَّةٌ راسِيَةٌ بالقُرْبِ من الشاطِىء.

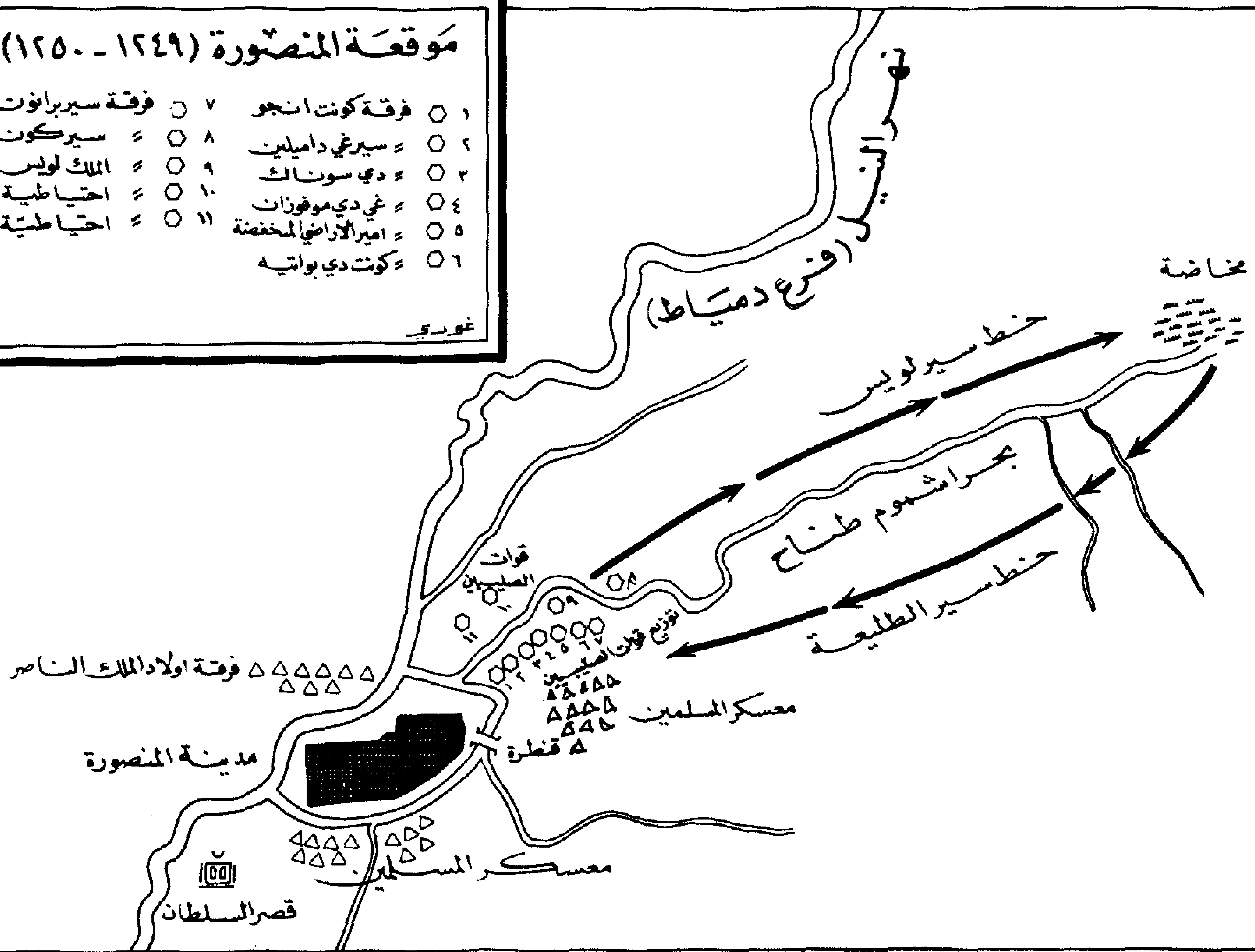
وفي يومِ الأحَدِ الثامنِ من أيّارَ عام ١٢٥٠م - ٠ صفر ٦٤٨هـ أقْلَعَت سُفُنُ الأعداء من دِمياطَ تُقِلُّ الملكَ الفرنسيَّ وفُلولَ قُوّاتِهِ، بعدَ أنْ ودَّعَها الشاعرُ الوزيرُ جَمالُ الدينِ بنُ مَطروحٍ بقصيدتِهِ المشهورةِ التي يقولُ فيها:

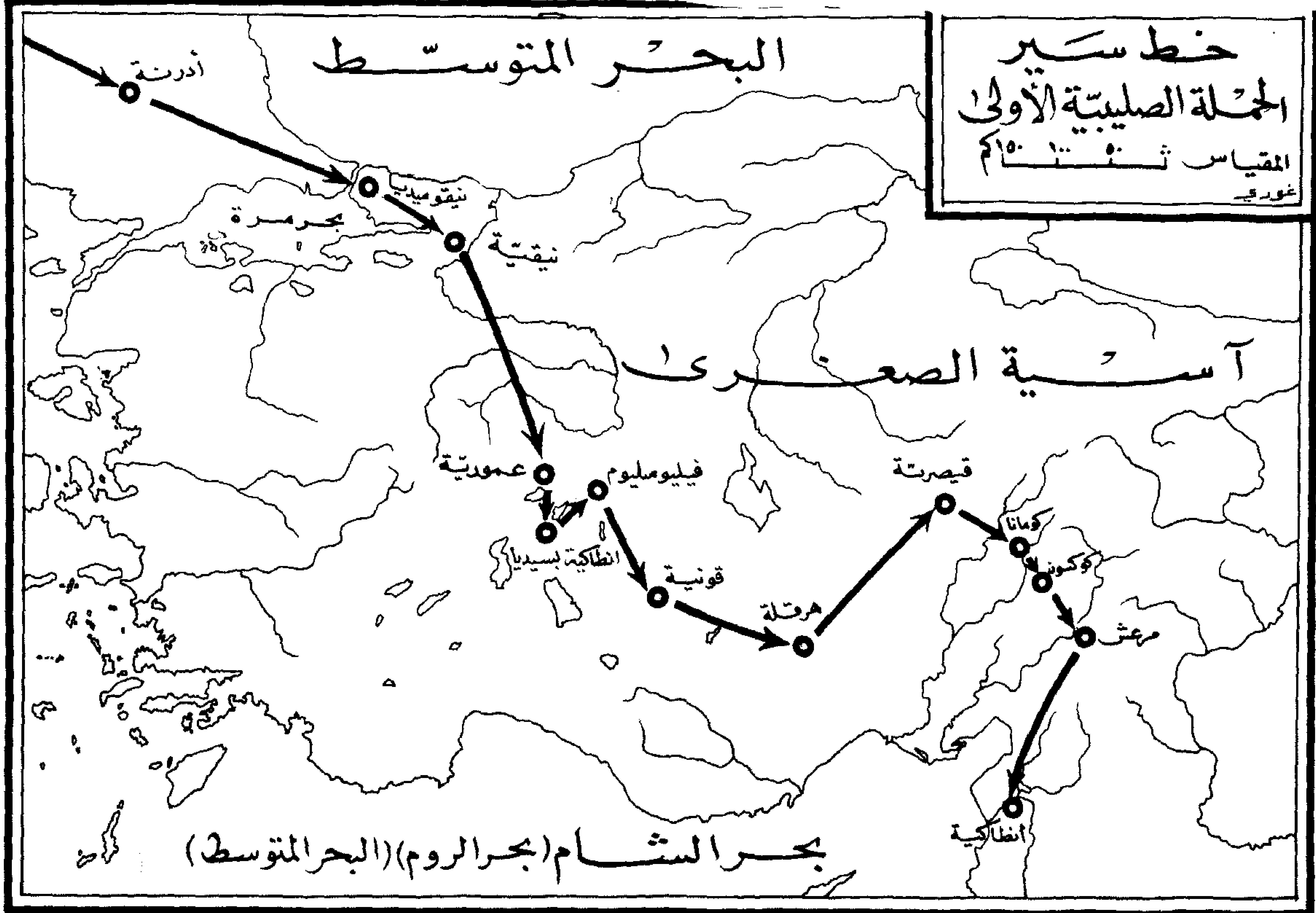
قُلْ لِلْفِرَنْسِيسِ إذا جِئْتَهُ
مقالَ نُصحٍ عن قَؤولٍ فَصِيحْ
آجَرَكَ اللهُ على ما جَرىٰ
مِن قَتْلِ عُبّادِ يَسُوعَ الْمَسِيحْ
أتَيْتَ مِصْراً تَبْتَغي مُلْكَهَا
تَحْسَبُ أنَّ الزَّمْرَ يا طَبْلُ رِيْحْ

فـــســاقَــكَ الــحَــيْــنُ إلى أدْهَــمٍ
ضَـاق بِـهِ عَـن نـاظِـرَيْكَ الـفَـسِـيْحْ
وكُـــلُّ أصــحــابِــكَ أوْدَعْــتَــهُــمْ
بِـحُـسْنِ تَـدْبِـيـرِكَ بَـطْـنَ الضَّـرِيحْ
وَفَّـــقَـــكَ اللهُ لأمْـــثـــالِـــهَـــا
لَـعَلَّ عِـيْسَـى مِـنْكُـمُ يَـسْـتَـرِيـحْ
إنْ يَــكُــنِ الــبــابــا بــذا راضِـيـاً
فَــرُبَّ غِـشٍّ قَـدْ أتَـى مِـنْ نَـصِـيـحْ
وقُــلْ لَــهُــمْ إنْ أضْـمَــرُوا عَــوْدَةً
لأخْـذِ ثَـأرٍ أو لِـفِـعْـلٍ قَـبِـيـحْ:
دارُ ابْــنِ لُــقْـمَـانَ على حَـالِـهـا
والـقَـيْـدُ بـاقٍ والـطواشي «صبيحْ»

المحتوى

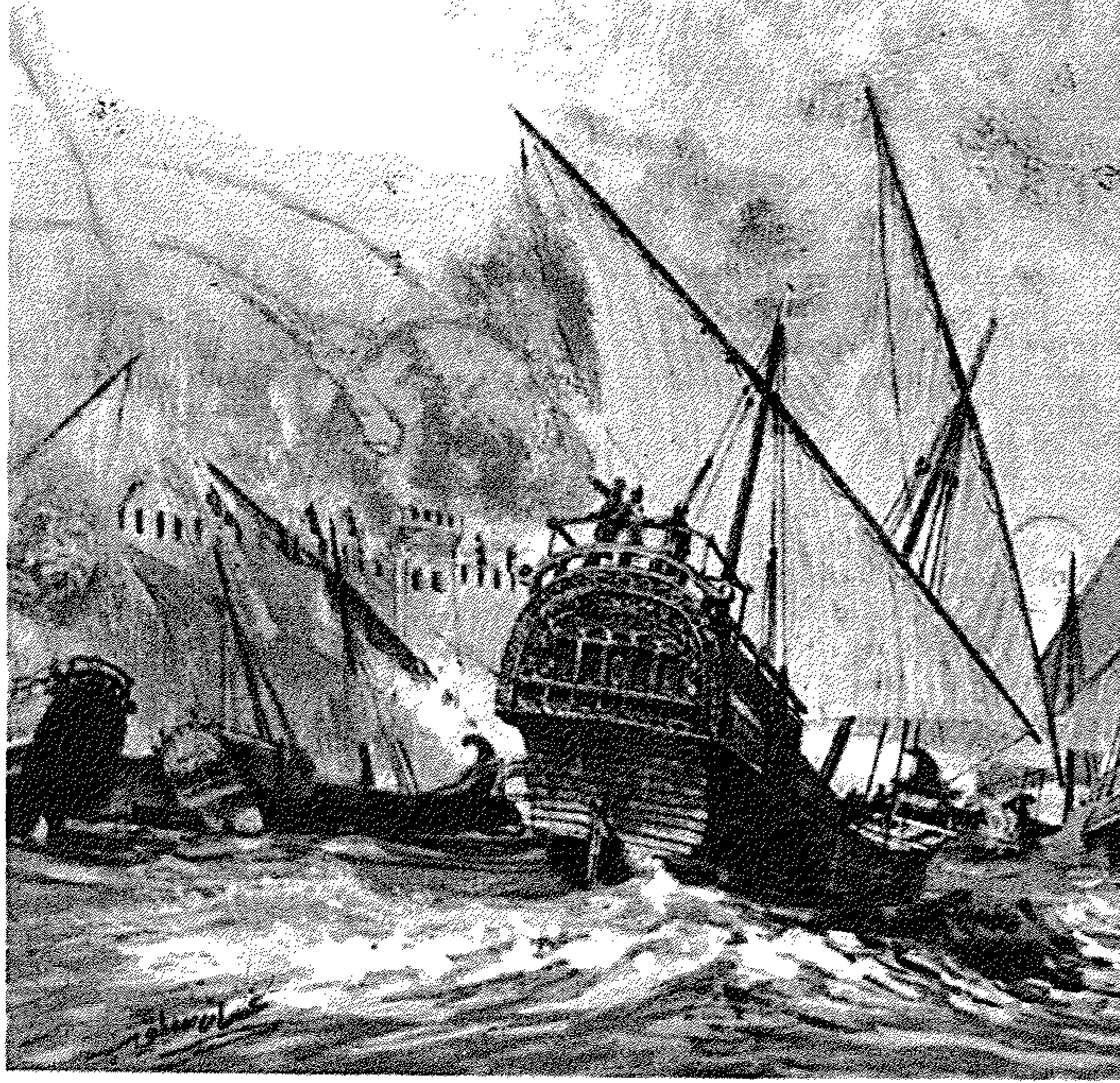

ميدان المعارك الصليبية
في الدلتا.
المقياس
٠ ٥ ١٠ ١٥
البحر المتوسط
دمياط
البر الغربي
فارسكور
نهر النيل (فرع دمياط)
البر الشرقي
المنصورة
بحر اسموم طناح
ترعة المنصورة
طناح
ترعة البوهية
المنزلة
بحيرة المنزلة
مصرف فاقوس


موقعة المنصورة (١٢٤٩ ـ ١٢٥٠)م
١ فرقة كونت انجو
٢ 〃 سيرغي داميلين
٣ 〃 دي سوناك
٤ 〃 غي دي موفوزان
٥ 〃 امير الاراضي المخفضة
٦ 〃 كونت دي بواتيه
٧ فرقة سيربرانون
٨ 〃 سيركون
٩ 〃 الملك لويس
١٠ 〃 احتياطية
١١ 〃 احتياطية
غوري
النيل (فرع دمياط)
مخاضة
خط سير لويس
بحر اشموم طناح
خط سير الطليعة
قوات الصليبيين
توزيع قوات الصليبيين
فرقة اولاد الملك الناصر
معسكر المسلمين
قنطرة
مدينة المنصورة
معسكر المسلمين
قصر السلطان


خط سير
الحملة الصليبية الأولى
المقياس ١٥٠ كم
غوري
البحر المتوسط
أدرنة
نيقوميديا
بحر مرمرة
نيقية
آسية الصغرى
عمورية
فيليوميليوم
انطاكية بسيديا
قونية
هرقلة
قيصرية
كومانا
كوكسون
مرعش
انطاكية
بحر الشام (بحر الروم) (البحر المتوسط)

معارك حربية فاصلة
عربية وإسلامية

شارك في تحرير هذه السلسلة
الدكتور صالح الأشتر
والدكتور عمر الدقاق
والأستاذ محمد الانطاكي
وأشرف على إصدارها
الدكتور صالح الأشتر



سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجيدة من تاريخنا الحافل بالبطولات من القرن الهجري الرابع الى العصر الحديث.

١ ـ معركة الحدث الحمراء ٢ ـ معركة الزلاقة ٣ ـ معركة حطين ٤ ـ معركة الارك
٥ ـ معركة المنصورة ٦ ـ معركة عين جالوت ٧ ـ معركة فتح القسطنطينية ٨ ـ معركة وادي المخازن
٩ ـ معركة ميسلون ١٠ ـ معركة الجبل الأخضر

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه الا القادرون على الموت في سبيله

المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية
حلب ـ المسلمية ـ المنطقة الحرة ـ